



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْإِنْسَانُ
نَهَرٌ يَبْحَثُ عَنْ مَجْرِيٍ

الإسلام هر يبحث عن مجرى / شوقي أبو خليل . — دمشق : دار
الفكر ، ١٩٩٦ . — ١٤٤ ص ، ١٧ سم .
ردمك : ٨ - ٢٦٧ - ٥٧٥٤٧ - ١ .

١ — ٢١٠,٩ خلي ! ٢ — ٢١٦,٧ خلي !
٣ — العنوان ٤ — أبو خليل
مكتبة الأسد

١٩٩٦ / ٧ / ٨٤٦

الأخلاقيات

نهرين يحيى عن مجدى

الدكتور شوقي أبو خليل



دار الفيصل
بيت المقدس - فلسطين

دار الفيصل للملايين
بيروت - لبنان



الرقم الاصطلاحي: ١٣٠٦٧

الرقم الدولي: 8-267-57547-1

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: الإسلام ثور يبحث عن مجري

التأليف: د. شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

النفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ١٤٤ ص

قياس الصفحة: ١٧٧x١٢٣ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمسح طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق

الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل

المرئي والسمعي والخاسبي وغيرها من

الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

سورية - دمشق - ص. ب (٩٦٢)

برفياً، ذكر

لناكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

<http://www.Fikr.com/>

E-Mail: Fikr @asca.com

الطبعة الأولى

١٤١٧ - ١٩٩٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الإلهام لمحديه نعمة من عنده .
والصلوة والسلام على سيدنا محمد رسوله الكريم
وعباده .
والرضا عن آلية وصحبة من بعده .
وبعد ..

منذ سنوات وأنا أفكّر في حال الإسلام مع مطلع القرن
الحادي والعشرين ، ونحن على أبوابه ، خصوصاً والهجمة عليه
عنيفة ، والتشويه له بالغ ، وإمكانات الآخر كبيرة بلا حدود
أو قيود .

ورحت أستعرض في ذاكرتي مراحل قيام الإسلام ويزوغر
فجره ، منذ اللحظة الأولى لنزول الوحي على قلب المصطفى
المختار صلوات الله عليه وآياته حتى مطلع القرن العشرين ، فرأيته نهراً منبعه
(حراء) ، ومعينه (أقرأ) ، ومنهله رحمة للإنسانية ، وقطاره
ومياهه لأولي الألباب الذين يتفكرُون ويعقلُون ، و مجرأة شعب
اختاره الله لحمل الإسلام للناس كافة ، ولن يكون لهم شرفاً
وتكريماً : **﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسُوفَ تُشَالَّوْنَ ﴾** ،
[الزُّخْرُف : ٤٤/٤٢] .

نهراً تدفق - ويتدفق - من كتاب عجيد ، وسُنة شريفة ،
ومجرأة شعب آمن بالله ربّا ، وبِمُحَمَّدٍ - صلوات الله عليه وآياته - رسولاً نبياً ، نبع
منطلقه (حراء) ، انسابت فروعه وساقيه إلى الصين وإفريقياً
وأوربة أيام الفتوح في العصر الأموي ، فainت غراس ضفتُيه
الخصيبتين الخيرتين ثمار نهضة علمية ، وحضارة إنسانية في
العصر العباسي ، ثم سار مجرأه تجاه نور الدين محمود ،
وصلاح الدين ، ثم تحول مجرأه إلى المغول في أواسط آسية
والهند ، وكان قد تفرّع منه فرع نقي طيب فرات إلى المرابطين

وأميرهم يوسف بن تاشفين ، حيث روى يبادئه حوض النّيجر ،
وسواحل إفريقيا الغربيّة ، ثمّ سقى مجراه الماليك ، ثمّ العثمانيّين
ـ قبل الاتحاد والترقيـ . حتى مطلع القرن العشرين .

هل نَضَبَ المعين فجفَّت مياه المجرى ؟

أم هل تحوّل المجرى من قناة إلى قناة أخرى ؟ فن الطّبيعي
لقوانين المياه ، وما عُرف بالأواني المستطرقة ، أن تتحوّل إلى
مجرى آخر ، إن وُضِعَت السُّدُود في طريقه ، فتراءٌ بهدوءٌ يبحث
عن مجرى جديد ، يناسب فيه .

علّماني التاريخ أنَّ المعين غزير متدفق ، فالإسلام نهر خالد
لن يجفَّ مجراه . فلئن زهد به مشركون مكَّة قبل الهجرة ، لقد
مهدَّ الأوس والخزرج مجراه إلى المدينة المنورة ، وجاء صلح
المديبية فتحاً سياسياً لِمَكَّة المكرمة ، وأدركت قريش أنها وقعت
على وثيقة استسلامها بنصوص صلح أملت بنوده بعناد ،
وانضوت في مجراه بعد فتح مكَّة ، لترفده بياخلوص في حروب
الرَّدَّة ، ثمَّ تدفَّقت سواقيه شرقاً وغرباً وشمالاً ، وأينعت تلك

السائل الطبيعية النُّصرة وأثرت حضارة إنسانية ، فيها الروح لا تنكر المادة ، والمادة لا تطغى على الروح .

ونظرت إلى واقع مدينة الغرب اليوم ، فرأيتها مجرى جفـ
ماوه ، يبحث عن مياه نهر صافى يرفرده ، ورأيت في الوقت ذاته
الإسلام نهراً يبحث عن مجرى .

هل من يشائر لبلوغ المجرى مدنية الغرب المادّيّة ، التي
جفت فيها ينابيع الروح ؟

البشاير كثيرة ، منها الأمور المؤثرة التالية :

ـ كنت أقرأ خطاب الأمير تشارلز ولـي عهد بـريطانية ،
أمير ويلز ، والـذي كان بـعنوان : (الإسلام والـغرب) ، ألقـاه في
مسرح شيلدونيان بـ المناسبة زـيارته إلى مرـكـز أـكسـفـورـد لـلـدـرـاسـات
الـإـسـلـامـيـة ، يوم الـأـربعـاء السـابـعـ والعـشـرـينـ منـ تـشـريـنـ الـأـوـلـ
(أكتـوبرـ) عام ١٩٩٢ـ مـ ، وـمـا جـاءـ فيـ خطـابـهـ بـعـدـ اـعـتـراـفـهـ
الـرـأـيـعـ بـأنـ الـحـضـارـةـ الـعـرـيـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ ـ الـقـىـ نـضـجـتـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ

في ظل الحكم الإسلامي - هي اللذتان الأولى للنهاية الأوربية ،
وقال ، كما جاء في الترجمة الرسمية للخطاب :

« إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتَّفَاهُمُ والعيش في
العالم ، الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية ، مما أدى إلى
ضعفها ، ويمكن في جوهر الإسلام حفاظه على نظرية متكاملة
للكون ، فالإسلام - وعلى غرار الديانتين البوذية والهندوسية -
يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة ، والدين والعلم ، والعقل
واللادة .

لقد أصبحت الحضارة الغربية مولعة بالكسب واستغلاله
على نحو متزايد بما يتنافى مع مسؤولياتنا البيئية ، إنَّ هذا
الشعور الهام بالوحدةانية والوصاية على الطَّابع القدسي والروحي
للعالم من حولنا شيء مهم يمكن أن نتعلمه من جديد من
الإسلام ، إنني على ثقة بأنَّ البعض سيسارع لاتهامي - كما يفعل
عادة - بأنني أعيش في الماضي ، وأنني أرفض التَّأقلم مع الواقع
والحياة العصرية .

أيها السيدات والسادة ..

إنَّ الْأَمْرَ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ ، فَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هُوَ فَهِمْ أَوْسَعُ وَأَعْقَبْ وَأَشْمَلُ لِعَالَمِنَا ، وَفَهِمْ يَشْمَلُ الْبَعْدَ الرُّوْحِيَّ ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْبَعْدِ الْمَادِيِّ لِحَيَاةِنَا ، بِغَيْةِ اسْتِعَادَةِ التَّوازنِ الَّذِي تَخْلَيْنَا عَنْهُ ، وَالَّذِي أَعْتَدْتُ أَنَّ غِيَابَهُ سَيَثْبِتُ أَنَّهُ مَدْمُرٌ فِي الْأَمْدِ الطُّوْيلِ ، وَإِذَا كَانَتْ أَسَالِيبُ التَّفْكِيرِ الْمُوْجَودَةُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْدِيَانَاتِ الْأُخْرَى ، يُكَنُّ أَنْ تَسْاعِدُنَا فِي هَذَا السَّبِيلِ ، فَإِنَّ هُنَّاكَ أَشْيَاءٍ يُكَنُّ أَنْ تَتَعَلَّمُنَا مِنْ نَظَامِ الْعَقِيْدَةِ هَذَا ، وَالَّتِي أَرَى أَنَّنَا نَتَجَاهِلُهَا بِشَكْلٍ يُلْحِقُ بِنَا الْخَطَرَ ٠ .

- وأذاعت لندن (هيئة الإذاعة البريطانية) صباح الأحد ١٩٩٥/١/٢٩ م أَنَّهُ عَلَى الرُّغْمِ مِنِ الْعِدَاءِ الْمُعْلَنِ ، وَالْمَحْدُثُ عَنِ الْأَصْوَلِيَّةِ ، وَعَنِ الْإِرْهَابِ الْإِسْلَامِيِّ .. عَشْرَةُ آلَافٍ بِرِيَطَانِيٍّ يَعْتَنِقُونَ إِلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، قَسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، وَذَلِكَ خَلَالَ عَامِ ١٩٩٤ فَقَطَ ٠ .

- وفي عام ١٩٨٥ م (١١ - ١٢ الْحَرَمَ ١٤٠٦ هـ) عَقِيدَ مؤْتَمِرٍ دُولِيٍّ ، خَصَّصَ لِلْإِعْجَازِ الْعَلَمِيِّ - الطَّبِيِّيِّ خَاصَّةً - فِي الْقُرْآنِ

الكرم ، وأثناء المؤتمر ، اعتنق عبد الله أليسون الإسلام ، وهو بريطاني ، يعمل حالياً رئيس قسم الهندسة الإلكترونية بجامعة لندن ، وممّا قاله أليسون حين إعلان إسلامه :

« إنّ العالم الماديّ اليوم في مأزق خطير ، وما يقولونه أو يرونّه لا يفسّر الحقيقة تماماً ، إنّهم يبحثون عن العودة إلى الدين والبيان الصحيح الشامل ، وهنا يقع العبء على المسلمين ، وهذا هو واجبهم ، وواجب مفكّرهم في التقدّم إلى البشرية الحائرة التائهة بالحلول الإسلامية السليمة » .

ـ والدكتورة آن كوكسون ، آمنة كوكسون اليوم ، طبيبة بريطانية استشاريّة متخصّصة في الأمراض العصبية ، وخلال عملها في الثّيانيّات التقت بالكثيرين من المسلمين ، وتعلّمت إلى طبائعهم وعاداتهم ، وتذكّر على وجه خاص أسلوب استجابة الإنسان المسلم عند وقوع المأساة ، وتروي بهذا الشأن قصّة امرأة شابة جاءت من إحدى البلاد العربيّة لترافق والدتها المريضة^(١) .

(١) (مئذني) العدد ٧١٢ ، ٢ - ١٢٩ / ١٩٩٤ ، ص ٦ - ١٠ ، وعيادتها في (هاري سريت) المعروف بشارع الطّب .

كان من المفترض أن هذه المرأة الشابة معافاة وصحيحة ، ولا شأن لها بالمرض الذي هو بالأحرى مشكلة والدتها ، لكن الدكتورة آن كوكسون كان عليها حسب الإجراءات أن تفحص الابنة فحصاً عاماً تقليدياً ، فكانت المفاجأة غير المتوقعة ، بل المفجعة ، إن هذه الابنة الشابة السليمية المعافاة ، أُنضجَتْ أنَّ لديها بوادر إصابة بمرض سرطان الثدي .

« الحمد لله » قالت الابنة على الرغم من الخبر الذي تقلته إليها الدكتورة آن كوكسون على مضض ، « الحمد لله أنه بعثكِ إلى لتكشفني مرضي وهو في أولياته » ، كان هذا كلَّ مارَدَتْ به الابنة .

تقول الدكتور (آن) :

« هذه القناعة ، وهذا الرضا بما يقسمه الله للعباد أسراراني في هذه المرأة ، لم تولِّ ولم تصرخ ، ولم تبكِ أو تفزع مثلاً تفعل نحن هنا ، لقد شعرت بالرَّاحة من هذا المسلك ، فاستزدَتْ بقوَّة روحانية وإحساس بالثبات » .

وبعد دراسة الإسلام الذي أعطى الطمأنينة والراحة النفسية
لهذه الفتاة ، وحينما اقترب رمضان عام ١٩٩٠ م خطرت لها
فكرة : « قلت لنفسي سيكون من الجميل لواعتنقت الإسلام
بناسبة حلول رمضان » ، فصامتت وأعلنت إسلامها في مسجد
لندن .

وحيثما تذكر الدكتورة آمنة - وهو اسمها بعد إعلان
إسلامها - تلك اللحظات تلمع عيناهما بالحنان ، تقول :

« سبق لي كثيراً أن قرأت القرآن الكريم مترجماً وفهمت
الكثير منه ، لكن الاستماع إلى تلاوة القرآن باللغة العربية شيء
آخر ، فباللغة الأصلية نستمتع بالطعم الحقيقى للكلمة ، إن لفظة
الرحمن الرحيم - تقولها بالعربية - لها طعم مختلف على اللسان
من ترجمتها إلى The Merciful and Compassionate ، وحين
استمعت إلى تلاوة القرآن لأول مرة من صوت قارئ مصرى
ضرير ، بكى ..

أعتقد أنَّ الإنسان الذي يعتنق الإسلام سيجد أنه دين
يجمع الأديان السابقة ويزيد عليها ، وهذه هي عظمته

الإسلام ، فالماء لا يشعر أنَّ عليه أن يتنكر أو يحتقر دينه السابق ، لأنَّ الإسلام يحترم كلَّ الأنبياء السَّابقين لِهِمْ خاتم المرسلين عليه ، فالنبيُّ عيسى عليه السلام مُقدَّر ومحترم في الدين الإسلامي ، وكذلك أمُّه مريم عليها السلام ، وهذا شيء جميل يدلُّ على رحابة الإسلام وشموليته وعلى أنَّه خاتم الأديان » .

وتقول الدكتورة آمنة كوكسون : « الإسلام أصبح جزءاً مني .. كنت أشعر بفراغ روحي وأبحث عن شيء فوجدته في الإسلام .. ولحظات الصَّلاة بالحجاب هي لحظات النقاء الروحي الكامل » .

ـ أمَا الدكتور مرادو يلفرد هوفمان ، سفير ألمانية في المغرب ، فقد ذكر في كتابه الموسوم بـ (يوميات الماني مسلم)^(١) الفراغ الروحي في الغرب ، وكبار علماء المجتمع ، وحتى كبار رجال الألهوت ، بدؤوا يرفضون عقيدة الغرب ونحوه ، وراحوا يتوجهون إلى الإسلام ، مثل : عالم الألهوت السويسري

(١) ترجمة د . عباس رشدي العماري ، طباعة : مركز الأهرام للترجمة والنشر .

الدكتور هانز كونيج ، الذي يَسْلُم بِأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا حَقِيقِيًّا
بِعْنَى الْكَلْمَةِ ، وَلَا يَكُنُّا بَعْدَ إِنْكَارِ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الرَّشِيدُ
الْقَائِدُ عَلَى طَرِيقِ النُّجَاهَةِ .

ثُمُّ تَكَلَّمُ الدَّكْتُورُ هُوفَانُ عَنْ : مَنَاعَةِ الْإِسْلَامِ ، وَاتِّشَارِهِ
بِشَكْلِ عَفْوِيٍّ ، وَهَذَا الْإِنْتَشَارُ الْعَفْوِيُّ بِيَمِّهِ مِنْ سَمَاتِهِ عَلَى مَرْأَةِ
الْتَّارِيخِ ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ اتِّشَارِ الشَّرَائِعِ الْأُخْرَى الَّتِي طَبَّقَتْ
بِالْعُنْفِ وَالْوُحْشِيَّةِ ، وَاتِّشَارِ الْإِسْلَامِ بِشَكْلِ عَفْوِيٍّ أَوْ طَبَّيْعِيٍّ ،
لَاَنَّهُ دِينُ الْفَطَرَةِ الْمَنْزُلُ عَلَى قَلْبِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَقُولُ :
وَخَيْرُ سِلاحٍ لِدُعَائِهِ الْأَسْوَةِ الْحَسَنَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَهَذَا أَمْرٌ بَدِهِيٌّ ، فَمَنْ أَيْنَ جَئَتْ سَاحِفَتِهِ الشَّرِيفَةِ ،
نَهَلَتْ قَمَ الْمَجْدِ وَالْكَمالِ الْبَشَرِيِّ .

- الدَّكْتُورُ (رُوبِرْتُ كَرِين) فَارُوقُ عَبْدُ الْحَقِّ ، مُسْتَشَارُ
الرَّئِيسِ الْأَمْرِيْكِيِّ نِيْكُسُونَ لِلشُّؤُونِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَنَائِبُ مُدِيرِ
مَجْلِسِ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ فِي الْبَيْتِ الْأَبْيَضِ عَامَ ١٩٦٩ مَ ، وَسَفِيرُ
الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فِي الْإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ فِي عَهْدِ رُوَنَالْدِ

ريغان ١٩٨١ م ، أسلم عام ١٩٨٠ م على يد الدكتور حسن
الترابي^(١) .

من تصريحاته :

الإسلام هو الحلُّ الوحيد ، فهو الذي يحمل العدالة في
مقاصد الشُّريعة ، وفي الكلَّيات والجزئيات والضروريات .

المفتاح للإسلام هو استعمال العقل ، والمتابعة للوصول إلى
الحقيقة ، والحقيقة تحتوي على الهدف والقصد .

(١) الدكتور روبرت كرين (فاروق عبد الحق) هو المؤسس والمنشئ لمركز
الحضارة والتَّجَدُّيد في الولايات المتَّحدة الأمريكية ، وبعد حصوله على
الدكتوراه في الأنظمة القانونية المقارنة من جامعة هارفارد ، وبعد
تأسيسه لصحيفة هارفارد للقانون الدولي وتسلمه منصب الرئيس الأول
لجمعية هارفارد للقانون الدولي ، عمل لمدة عقد من الزَّمن فيها يسَّرَ
به (المراكز الاستشارية لصناعة السياسة في واشنطن) ، وشارك في تأسيس
مركز الدراسات الاستراتيجية الدولي ، (العالم (العدد ٥٢٦) تشرين
الثَّاني (نوفمبر) ١٩٩٥ ، جمادى الثانية ١٤١٦ هـ ، ص ٢٦-٣٦ ، مقابلة
صحفية جرت بدمشق مع الدكتور روبرت كرين) .

هذا غيض من فيض ، وقل من كثُر مُما يجري في الغرب
اليوم ، وألام المخاض لا بد منها ، فالمولود ذو قيمة ثمينة جداً ، إن
النجاة بين يديه ..

والأمثلة أكثر من أن تُحصى ، رجا غارودي ، يوسف
إسلام (كات استيفنس) مطرب القارئين ، عبد الرشيد سكتر
(صاحب تكنولوجيا السلوك الإنساني) ، أولفا بالي رئيس
وزراء السويد الأسبق ، الذي جعل عام ١٩٨٥ م عام الإسلام في
السويد ، ولقد أراد منه : زيادة التعرّيف بالإسلام ديناً
وحضارة وأسلوب حياة ، بعد أن ظهر أن الملايين التي تعتنق
تفرض وجودها في العالم ، وإيجاد التقاء مع الجالية الإسلامية في
السويد والاستفادة منها ، وإيجاد اتصال ثقافي مع العالم
الإسلامي والعربي ، وعلى تدعيم نقاط الالتقاء القدية التي
تركّت بصمات على حياتنا حتى اليوم ، « وعندما نأخذ من
الإسلام الجانب الروحي الغني ، فسوف نستطيع التّعُّقب معًا
المستقبل الواحد الخير » .

واستعداد الناس في الغرب ساع كلّ جديد ، يفتح الأبواب
ويزيل السُّود النُّفسيّة ، ومن يعتنق الإسلام من الأوربيّين ،
يتحول تلقائيًا إلى داعية لما اقتنع به ، فكما أنّ الإنسان مطبوع
على حبّ الجمال مفطور عليه ، إن رأى وردة نضرة أحبهَا ،
وإن شُمَّ رائحة زكية شذىّة عشقها ، فإنه مطبوع على حبّ
الحقيقة مفطور عليها .

كان الإنسان في الغرب يقبل التقلين بلا عقل ، وبلا
تحيص ، اتّباعاً للقوليّن المعروفيّن عندهم : أطّع وأنت أعمى ،
واعتقد هذا وإنّا هلكت ، ولكن ما عاد العصر ، والتقدّم العلمي
يقبل إبعاد العقل والمحاكمة والعلم ومكتشفاته عن المعتقد .

☆ ☆ ☆

ويبعد ..

هذا الكتاب ببيان :

الباب الأوّل :

عرض لكتّاب طبع بخمس لغات ، عنوانه : (من ذاكرة

التاريخ العربي الإسلامي) ، وزّعته اللجنة الدوليّة للصلّيب الأحمر .

أردت من عرضه شيئاً :

أولها : تصويب ما ورد فيه من الناحية التاريخيّة .

ثانيها : إن القانون الدولي الإنساني المعامل بهاليوم حسب اتفاقيات جنيف ، مع الملحقين المضافين لها ، مقتبسة - جلّها - من الإسلام ، مع الفارق الجوهرى ، فاتفاقات جنيف توصيات ، قد يُعمل بها ، وغالباً تُترك دون خشية أحد ، بينما القانون الدولي الإنساني في الإسلام عقيدة ومبرأة ، ينفذ برقيب ذاتي ، لأنّه دين .

والباب الثاني :

يضم ثلاثة فصول وخاتمة :

الفصل الأول : المجرى الذي جف .

والفصل الثاني : النهر الذي يبحث عن مجرى .

والفصل الثالث : ويبقى الإسلام قوياً .

وخاتمة : القرن الحادي والعشرون قرن الإسلام .

فكان وجد العالم في الإسلام الضوابط الإنسانية لعلاقاته
الدولية ، سينجذب فيه أيضاً ضالته لحياته الأسرية والاجتماعية
والعقدية .

فالخاتمة (نبوءة) ، أو (توقع) ، أو (بشرة) .. بداياتها
ظاهرة بيّنة .

﴿ يَرِيدُونَ أَن يَطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْتِيَ اللَّهُ إِلَّا أَن
يَتَمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيَظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ وَلَوْ كَرِهُ الْمُشْرِكُونَ كُلُّهُمْ ،
[التوبة : ٢٢ و ٢٣] .

صدق الله العظيم

الدكتور شوقي أبو خليل

دمشق الشام في :

٦ رمضان المبارك ١٤١٦ هـ .

٢٦ كانون الثاني ١٩٩٦ م .

الباب الأول

من ذاكرة

التاريخ العربي الإسلامي

من ذاكرة التّارِيخ العربي الإسلامي

وزّعت اللجنة الدوليّة للصلّيب الأحمر (International Comitee of the Red Cross) كراساً مطبوعاً بخمس لغات هي اللغات المعتمدة في منظمة الأمم المتّحدة ، طبع بشكل أنيق ، وألوان جذابة ، عنوانه : (من ذاكرة التّارِيخ العربي الإسلامي) ، فيه مقارنة لطيفة موثقة بين القانون الدولي المعامل بهاليوم عالمياً ، حسب اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ م ، والبروتوكولين الملحقين الإضافيين لاتفاقيات جنيف ، والصادرين عام ١٩٧٧ م ، وبين مبادئ الإسلام وتعاليه الإنسانية .

جاء في مقدمة هذا الكراس ، الذي حصلت عليه من الأستاذ الزميل الدكتور إحسان هندي ، الذي عرض الكراس المذكور في حاضرة سيادته في المجمع العلمي العالمي بدمشق ، يوم

الخميس ١٩٩٥/٤/٦ م ، والتي كانت تحت عنوان : (دور الإسلام
في نشوء وتطور القانون الدولي والإنساني)^(١) :

[جاء في المقدمة] :

« بإنطلاقه واعية على التراث العربي الإسلامي العريق ،
يتبيّن لنا مدى حرصه على تأكيد تقاليد الفروسيّة^(٢) ، حيث
أضفى عليها صبغته الإنسانية ، وحثّ على التقيّد بها ، من
حيث الاحترام المتبادل والإنصاف في المجموع والدفاع ،
كالامتناع عن قتل من سقط عن فرسه ، أو قتيل فرسه ،
بالإضافة إلى احترام حقوق المقاتلين ، والرّفق بالضحايا
ومعاملتهم معاملة إنسانية ، وهو في ذلك يتفق مع نصوص
وروح القانون الدولي الإنساني الذي يحتم حماية حقوق

(1) وكلّ نصّ في المتن بين قوسين معقدين [إضافة مني ، وكلّ حاشية في
هامش النصّ بالأرقام : ١ ، ٢ ، ٣ .. ليست من الكراس ، إنّها تصويب
أو تعليق ، أو توثيق مني أيضاً .

(2) نُفِّذَ كتب مفردة حول الفروسيّة في التراث الإسلامي ، انظر :
- الفروسيّة لابن القيم .
- الفروسيّة الشرعيّة لابن القيم أيضاً .

المقاتلين ، وضحايا النزاعات المسلحة ، ويقيّد من وسائل استعمال القوّة ، بقصر استعمالها ضدّ المقاتلين أثناء المعارك المحرّيّة ، وحظر استعمالها ضدّ المدنيّين أو الجرحيّ من المقاتلين الذين حيّدتهم إصاباتهم ، فأصبحوا غير مشاركين في القتال فعلاً .

إنَّ النُّظرَةَ المُتَائِيَّةَ لِتَبَيَّنِ بِجَلَاءِ وَوُضُوحِ حِرْصِ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ السَّمْحَاءِ ، وَحِرْصِ قَادَةِ جَيْوَشِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى احْتِرَامِ إِنْسَانِيَّةِ الْخَصْمِ ، سَوَاءَ كَانَ الْخَصْمُ مُقاَتِلًا أَوْ أَسِيرًا أَوْ مُدْنِيًّا أَعْزَلَ ، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ كَانَتْ إِحْدَى الْمَوَارِدِ الَّتِي نَهَلَ مِنْهَا الْقَانُونُ الدُّولِيُّ الْإِنْسَانِيُّ قَوَاعِدُهُ وَمُبَادِئُهُ السَّامِيَّةُ » .

[ثمَّ قَالَ الْكَرَاسِ] :

« وَسْتَجِدُ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَّةِ بَعْضُ النُّصُوصِ التُّرَاثِيَّةِ اسْتَقِيَّنَا هَا كَشْوَاهِدَ مِنَ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ ، وَأَثَبَّنَا مَا يَتَّقَقُ مَعْهَا مِنْ نُصُوصِ الْقَانُونِ الدُّولِيِّ الْإِنْسَانِيِّ الْمُعَاصِرِ .

وفي البداية نجد أنه من المناسب التعرّف على ماهيّة القانون الدولي الإنساني ، حيث يمكن تعريفه بأنه (مجموعة من القواعد القانونيّة التي تحدّد حقوق ضحايا النزاعات المسلّحة ، وتفرض قيوداً على المقاتلين في وسائل استخدام القوّة العسكريّة ، وقصرها على المقاتلين دون غيرهم ، وضحايا النزاعات المسلّحة هم القتل والجرح والمرضى والأسرى في المعارك البريّة والبحريّة والجويّة ، فضلاً عن المحميّين في الأرض المحتلة) .

[ومن وثائقه المعتمدة] :

- اتفاقيّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ م^(١) .
- البروتوكولان (الملحقان) الإضافيّان لاتفاقيّات جنيف والصادران عام ١٩٧٧^(٢) .

(١) وقد صدّق على اتفاقيّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ أغلب دول العالم ، حيث بلغ عددها ١٨١ دولة حتى الآن .

(٢) وقد صدّق على البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧ (١٢٦ دولة) حتى الآن ، وقد صدّق على البروتوكول الثاني لعام ١٩٧٧ (١١٧ دولة) حتى الآن .

ـ مبادئ القانون الدولي كما استقرّ بها العرف ومبادئ الإنسانية ، والضمير العام ، بالإضافة إلى القواعد الإنسانية المستمدّة من أيّ اتفاق دولي ـ .

[ثم يذكر القرآن] :

« ومن يراجع التراث الإسلامي ، يجد أنه قد اتفق مع المعاهدات المعاصرة التي قيدت استخدام القوة في النزاعات المسلحة ، ولقد اتسمت الحرب في الإسلام بالرّحمة والفضيلة ، فلنقرأ قول رسول الله ﷺ ، وهو يقول لمن تولى إمارة الجندي :

« انطلقوا باسم الله ، وعلى بركة رسوله ، ولا تقتلوا شيئاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ـ أي لا تخونوا ـ وأصلحوا وأحسنوا ، إنّ الله يحبّ المحسنين ـ .

[النص في السيرة الحلبية ٧٧/٣ : « أوصيكم بتقوى الله ، وبن عكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشّام ، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتذلين فلا تتعرّضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا بناءً ـ 】 .

ويُعَضَّد^(١) هذا القول أول الخلفاء الرّاشدين أبو بكر الصّدّيق حيث يقول :

« ولا تقطعوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لِمَأْكَلَةً ، وسوف تُرُونَ عَلَى قَوْمٍ أَفْرَغُوا أَنفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَغُوا أَنفُسَهُمْ لَهُ ». .

[وصيّة الصّدّيق رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد كا في [الطّبرى ٢٢٦/٢ ، الكامل في التّارىخ ٢٢٧/٢] : « يَا أَيُّهَا النّاسُ ، قُسُوا أَوْصِيكُمْ بِعَشْرَ فَاحفَظُوهَا عَنِّي : لَا تَخْسُونَ وَلَا تَغْلُبُوا ، وَلَا تَفْدَرُوا وَلَا تَمْثُلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا طَفْلًا صَغِيرًا ، وَلَا شِيَخًا كَبِيرًا وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَعْقِرُوا نَخْلًا وَلَا تَحْرِقُوهُ ، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مَثَرَةً ، وَلَا تَذْبَحُوا شَاةً وَلَا بَقْرَةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةً ، وَسَوْفَ تُرُونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَغُوا أَنفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ ، فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَغُوا أَنفُسَهُمْ لَهُ ، وَسَوْفَ تَقْدِمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَكُم بِأَنْوَافِهَا أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، فَإِذَا أَكَلْتُم مِّنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَادْكُرُوا

(1) في الأصل (ويَكْلُ) ، والأنسب : ويُعَضَّد .

اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أو ساط رؤوسهم
وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا
باسم الله [.

ثم يضيف ليزيد بن أبي سفيان قائلاً : (ولا تقاتل بمروحاً
فإنَّ بعضه ليس منه) ^(١) .

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل يتأتي الفقه الإسلامي
مفرعاً على هذه الأحكام فروعاً ، من ذلك ما ذهب إليه
الإمامان مالك والأوزاعي من أنه : لا يجوز بحال من الأحوال
قتل النساء والصبيان من الأعداء ، ولو ترَسَ بهم أهل الحرب ،
أي حتى ولو وضعوهم أمامهم دريَّة للقتل ، وترساً يحميهم
منه .

هذا وقد أتى القانون الدولي الإنساني بتنظيم دقيق لاستعمال
القوة العسكرية ، حيث قصر استعمالها على الأفراد العسكريين ،
وعلى الأعيان العسكرية ، بصورة تتفق مع ما سبق وعرضناه
من قبل ، بالنسبة لحديث رسول الله ﷺ لأمراء الجند .

(١) في عيون الأخبار ١٠٧١ : « ولا تقاتل بمروحة فإنَّ بعضه ليس منه » .

وتغليباً للطبع الإنساني فقد جاءت تسمية القانون الذي يحكم النزاعات المسلحة (بالقانون الدولي الإنساني) ^(١) ، حيث الحماية التي يكفلها ويسمى لضمانها البعض الطوائف والأشخاص ، وهي التي أكّد عليها دوماً التراث العربي الإسلامي ، و هو لاء الأشخاص هم :

- الجرحى والمرضى والفرق [الاتفاقيتان الأولى والثانية ، والبروتوكول الأول] .
- أسرى الحرب [الاتفاقيّة الثالثة ، والبروتوكول الأول] .
- المدنيون [الاتفاقيّة الرابعة ، والبروتوكول الأول] .
- ضحايا النزاعات المسلحة الداخليّة [المادة الثالثة المشتركة ، والبروتوكول الثاني] .
- أفراد الخدمات الطبيّة والصحيّة والمساعدة الإنسانية ، ورجال الدين ، وأفراد الجمعيّات التطوعيّة .

(١) استخدام هذا الاصطلاح يرجع إلى اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر ، وأصبح علّ اتفاق من الجميع للدلالة على حقوق الإنسان أثناء النزاع المسلح .

كذلك حدد القانون الدولي الإنساني بدقة الممتلكات والأماكن الحميدة ، وأورد تنظيمياً دقيقاً لتوفير سبل حمايتها ، ومنع الاعتداء عليها ، وهي :

- شارة الحمامة (الملال الأحمر أو الصليب الأحمر) .
- الوحدات والمنشآت الصحية بكلفة أصنافها ووسائلها .
- الممتلكات ذات الطابع المدني عموماً .
- الممتلكات الثقافية ، وأماكن العبادة .
- المناطق الآمنة .
- المناطق المحجوبة .
- المناطق غير الحميدة .
- المناطق المزروعة السلاح .
- وسائل عمل الحماية المدنية ومنتشراتها .
- المنشآت التي تحتوي على قوى خطيرة ، كالسدود ومحطات توليد الطاقة الكهربائية .
- البيئة الطبيعية .

وإذا كان القانون الدولي الإنساني قد ألقى بمنظومة من

القواعد والمبادئ التي تهدف إلى حماية ضحايا النزاعات المسلحة ، بحيث تكفل لهم الرعاية والعناية الكافية ، علاوة على توفير الاحترام والحماية لهم في حالة وفاتهم أو فقدهم فضلاً عن حماية السكان المدنيين والأعيان المدنية ، والتي حرص على تأكيدها في أغلب نصوصه ، فإن ذلك مرجعه أن ما تضمنه من قواعد ليست سوى ترسیخ لقيم ومبادئ متّصلة في التراث الإنساني العالمي ، وإذا صيغت في العصور الحديثة في نصوص اتفاقيات دولية فلأن المجتمع الدولي في حاجة ماسة إليها الآن ، وخاصةً أن الممارسات الدّاميّة التي تصاحب أغلب المواجهات المسلحة تُسمّ بالقسوة والوحشية ، وهذه القواعد مستقرة في الفقه الإسلامي الذي أرسى قواعد المعاملة الإنسانية للعدو الذي لا يستطيع قتالاً ، وميّز بين المقاتلين وغير المقاتلين ، وضمن حصانة المبعوثين والرسّل وحظر الخيانة في الحرب ، وفيها يلي أمثلة عن كيفية معاملة المسلمين للجرحى والمرضى والأسرى :

- بالنسبة لحقوق الجرحى والمرضى فقد أوجب الإسلام سالمتهم الجرحى والمرضى ، وحرّم مقاتلتهم أو قتلهم

أو المثلة بهم ، ولقد جاءت تصريحات صلاح الدين الأيوبي في الحرب الصليبية خير دليل على ذلك ، حيث قام بنفسه بعلاج قائد الصليبيين ريتشارد قلب الأسد .

« يفهم مما ذكرته المراجع أن ريتشارد دأب في مرضه على طلب الفاكهة والثلج من صلاح الدين ، فكان صلاح الدين يستحضرها خصيصاً له ويرسلها إليه ، وكان لذلك السلوك من جانب صلاح الدين أطيب الأثر في نفس ريتشارد » ، [المحركة الصليبية ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ٢٩٦/٢] .

وفي النّوادر السُّلطانية ص ٢٨٣ لابن شدّاد ، وفي كتاب الرّؤضيّن لأبي شامة : « ورَسُّل الإنكليزي - الإنكليزي - لا تقطع في طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع عليه في مرضه شهوة الكثري والخوخ ، وكان السُّلطان يمده بذلك » [١] .

ـ أمّا بالنّسبة لمعاملة المسلمين لأسرى الحرب ، فقد ورد
بالقرآن الكريم : (وَيَطْعَمُونَ الظَّعَامَ عَلَى حَبَّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا) [الإنسان : ٨٣] ، وقال الرّسول ﷺ : « استوصوا
بأسرى خيراً » ، وحثّ المسلمين على خشن معاملتهم منذ أكثر

من ألف سنة ، حيث كان الأسرى يُقتلون ويُعذّبون وتقطع أطرافهم ، ثم يُستعبد البعض الآخر .

(الأحاديث النبوية التي تأمر بحسن معاملة الأسرى والإحسان إليهم كثيرة جداً ، تقتطف منها ما جاء في [أسد الغابة ٢١٢/٦] في ترجمة أبي عزیز بن عمير ، لما أقبل رسول الله ﷺ بأساری بدر ، فرّقهم على المسلمين ، وقال : « استوصوا بالأسرى خيراً » ، قال أبو عزیز : كنت في الأسرى يوم بدر - وكان مِنْ حضر بدرًا وأُسر يومئذ - فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « استوصوا بالأسرى خيراً » ، فلما كان ليقدم إليهم الطعام ، فما يقع أحدهم كسرة إلا رمى بها إليّ ، ويأكلون التمر يؤثرونني ، فلما أستعي فأخذ الكسرة فارمي بها إليه ، فيرمى بها إليّ .

وورد أيضاً في كتاب الله العظيم : (ما كان لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْعَنَ فِي الْأَرْضِ) [الأنفال : ٧٧/٨] ، (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّمَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخْذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِر لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأنفال : ٧٠/٨] .

تلك .. بعض أحكام الشريعة الإسلامية عن حقوق المقاتلين وضحايا النزاعات المسلحة في خلفية عربية (ذكرت) بقدر ما يسمح به المجال ، وكتب الفقهاء تزخر بالكثير من الكتابات تحت مصنف السير أو المغازي ، حيث أضاف الفقهاء التفريعات تكملة للأصول ، ووصلوا الأحكام فسطروا باجتهادهم⁽¹⁾ نظرية متكاملة في القانون الدولي الإنساني المعاصر ، سبقت به الشريعة الإسلامية المجتمع الدولي بأكثر من ألف عام ، بل لا تزال تسبق بما يطالب به الفقهاء المعاصرون بمزيد من الحماية لضحايا النزاعات المسلحة .

وإذا كان لنا من قوله في ختام هذا الحديث فهو أن الحرب وإن كانت ضرورة تقدر بقدرها إلا أنها كما يقول ابن خلدون : « فإن الحرب لم تزل واقعة في الخليقة منذ بدأها الله » .

وإذا كان من أهم قواعد المنطق لاحترام قاعدة قانونية هو معرفتها ، فقد ألمت قواعد القانون الدولي الإنساني المعاصر

(1) في الأصل : « فنسخ اجتهادهم » .

وعلى رأسها اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ ، الدول الأطراف فيها بالعمل على نشر المعرفة بهذه الأحكام .

وبهذا العرض الموجز أتُضْحِي لنا أنَّ قواعد القانون الدولي الإنساني لا تخرج عن عبادة الإسلام بأيَّ حال ، بل إنَّ الكثير من قواعده تجد مصادرها في هذا الدين الحنيف ، وعلى ذلك فِيأنَّه من السهل على الإنسان إذا ما عُرِفَ أنَّ قواعد القانون الوضعي تفرض عليه احترام قواعد معاملة ضحايا النِّزاعات المسلحة ، وأنَّ الأمر فوق كونه قاعدة وضعية فهو قاعدة إنسانية ، استقرَّت وترسَّخت في الوجدان الإنساني تخاطب فيه إنسانيته فيحرص على احترامها وصون أحكامها » .

[ثم يقدِّم الكتاب نماذج للمقارنة بين نصوص إسلامية ، وبين نصوص من اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ ، تقدِّمها مع اقتراحات لتضاد ، وتصويبات لِتَتَدارك] .

تنص المادّة الثالثة - وهي مادّة مشتركة في اتفاقيّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ - على أنّه يحظر على أطراف النزاعات المسلحّة غير الدّولية :

ـ أعمال العنف ضدّ الحياة والشخص .

ـ الاعتداء على الكرامة الشخصيّة ، وعلى الأخص التّحقيق والمعاملة المزرية .

[جاء في كتاب الله الحميد : « ولقد كرّمنا بني آدم » ،
[الإسراء : ٦٢/٦] .

و جاء في الحديث الشريف أنّه ﷺ وقف لجنازة إنسان غير مسلم ، فقيل له : إِنَّهُ غير مسلم - نصراني أو يهودي - ، فقال ﷺ : « أَوَلَيْسَ إِنْسَانًا ؟ » ، [البخاري في الجنائز : ١٣١٢] ، و قال ﷺ : « أَنَا شهيد أَنَّ الْعَبادَ كُلُّهُمْ إِخْوَةٌ » ، (رواه ابن حنبل عن زيد بن أرقم) .

وتنص المادة ١٤ من اتفاقية جنيف الثالثة بشأن معاملة أسرى الحرب على أن « لأسرى الحرب في جميع الأحوال حق احترام أشخاصهم وشرفهم » .

كما تنص على المعنى ذاته المادة ٢٧ من الاتفاقية الرابعة فيما يتعلق بحماية الأشخاص المدنيين في الأرض المحتلة .

وجعل الكتاب قبلة هذه النصوص الفقرة التالية] :

« **النفس الإنسانية أشرف النّفوس في هذا العالم ، والبدن الإنساني أشرف الأجسام في هذا العالم** » ، [الإمام فخر الدين الرّازي في تفسيره للقرآن الكريم ، الموسوم (بفاتح الغيب)]^(١) .

(١) أرسل المشير (لورد رايرتس) إلى والدته رسالة في ١٨٥٧/٧/٢١ م يقول فيها : « إن عقوبة القتل المؤثرة ، هي نصب المباني على فم المدافع وإطلاقه ، إنه لمنظر رهيب جدًا ، ولكننا لانستطيع التنجُّب عنه حالياً ، إن هدفنا الوحيد هو أن نبعن إلى هؤلاء (المسلمين الأشرار) بأن الإنكليز سيقولون حكم الهند ومالكيها بنصر الله » ، من كتاب : (الأمير سيد صديق حسن خان ، حياته وأثاره) ، للدكتور محمد اجتباء الندوى ، ص ٩٧ .

تنص المادة ٢٧ من اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ الخاصة بمعاملة أسرى الحرب على أن « تزود الدولة الحاجزة أسرى الحرب بكميات كافية من الملابس ، والملابس الداخلية ، والجوارب بحيث تكون ملائمة لجو الإقليم الذي يقيم فيه الأسرى ، وإذا كانت كساوي قوات العدو المسلحة التي تقع في يد الدولة الحاجزة مناسبة لجو الإقليم ، يصير استعمالها لكساء أسرى الحرب » .

[يقابل هذا في الكتاب] :

« وكان [صلاح الدين الأيوبي] رحمة الله يحسن معاملة الأسرى ، ويحسن البارزين منهم بحسن المعيشة وخلع الثياب عليهم ، وعندما أحضر الناس قتلام بعده المعركة ، و كنت حاضراً ذلك المجلس ، ولقد أكرم - رحمة الله - المتقدمين منهم ، وأخلع على مقدمي عسكر الإفرنجيين فروة خاصة ، وأمر لكل واحد من الباقيين بفروة خرجية لأنَّ البرد كان شديداً .

وَحِينَ كَانَتِ الْمَعرِكَةُ أَوِ الْحَصَارُ تَنْتَهِي بِاسْتِسْلَامِ الْطَّرْفِ الْآخَرُ، كَانَ يَنْفَذُ شُرُوطَ الْاسْتِسْلَامِ بِدُقَّةٍ، بَلْ يَنْفَذُهَا وَفَقًا لِمَلْحَةِ الْمُسْتَسْلِمِينَ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَطَلَّبُهُ الشُّرُوطُ أَحْيَا نَاسًا.

وَحِينَ يَدْفَعُ الْأَسْرَى فَدَاءَهُمْ يُرْسَلُ مِنْ بَحْرِهِمْ حَتَّى يَصْلُوَا إِلَى مَأْمَنِهِمْ » .

(عنْ كِتَابِ (النُّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالْمَحَاسِنُ الْيُوسُفِيَّةُ)
لِبَهَاءِ الدِّينِ بْنِ شَدَّادٍ) .

القاعدة هي المساواة في المعاملة بين جميع الأسرى ، وهذا مانصّت عليه المادة ١٦ من الاتفاقيّة الثالثة الخاصة بمعاملة أسرى الحرب .

إلا أنّ المادة ١٦ قد أشارت إلى المعاملة الأفضل التي تمنع بسبب الحالة الصحيّة للأسير ، أو وفقاً لعمره أو مؤهله أو مهنته .

وتطبيعاً لذلك فقد نصّت المادة ٤٤ من الاتفاقيّة ذاتها على أنه « يجب معاملة الضيّاط ومن في حكمهم من الأسرى بالاعتبار الواجب لرتبهم وسنّهم » .

(وفي الإسلام) :

« .. وبعد أن فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان صلاح الدين الأيوبي في دهليز الخيمة ، فإنّها لم تكن قد نصّبت ، والنّاس يتقرّبون إليه بالأسرى وبنّ وجدوه من المقدّمين .

ونصبت الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط⁽¹⁾ ، وناول الملك جفري شربة من جلاب⁽²⁾ بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حال من العطش .

وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره صار أميناً ، فقصد السلطان بذلك الجري على مكارم الأخلاق » .

(عن كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لبهاء الدين بن شداد) .

نظم البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧ الملحق بأحكام اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ قواعد الحماية العامة للسكان المدنيين

(1) أرناط : أمير حصن الكرك ، وصفته المصادر الأوروبية بأنه ثور ذكي للفارس اللص في عصره ، اتصف بالجشع ، وبعدم الوفاء ، والغدر والوحشية ، والتعصب الأعمى .

(2) الجلاب : شراب الورد ، فارسي معرّب .

والأعيان المدنية والأعيان الثقافية وأماكن العبادة والأعيان
والمواد التي لا غنى عنها لبقاء السُّكَّان المدنين ، وذلك ضد آثار
القتال .

المادة ٥١ : « السُّكَّان المدنين لا يجوز أن يكونوا مهلاً
للهجوم » .

المادة ٥٢ : « الأعيان المدنية لا تكون مهلاً للهجوم أو
هجمات الردّع » .

المادة ٥٣ : « الأعيان الثقافية وأماكن العبادة لا تكون مهلاً
للهجوم أو الردّع » .

المادة ٥٤ : « يحظر مهاجمة أو تدمير المواد الغذائية
والمناطق الزراعية والحاصليل والماشية ومرافق المياه .. التي لا غنى
عنها لبقاء السُّكَّان المدنين » .

[ومقابل هذه النصوص أورد الكتاب] :
« .. لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تثثروا ،
ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا

خلاً ، ولا تقطعوا شجرة مثرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة
ولا بعيراً إلا لأكلة » .

(من وصايا الخليفة أبي بكر الصديق إلى قائد الجيش
العربي المتوجه إلى بلاد الشام ، أسامة بن زيد ، « تاريخ الرسل
والملوك لابن جرير الطبرى ») .



[٥]

نصت المادة ٨٢ من اتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ بشأن حماية المدنيين وقت الحرب على أن « .. يقيم أفراد العائلة الواحدة ، وعلى الأخص الوالدان والأطفال معاً طوال مدة الاعتقال في معتقل واحد .. ويجوز للمعتقلين أن يطلبوا أخذ أطفالهم غير المعتقلين والذين يتركون دون رعاية عائلية ، ليعتقلا معهم .

يقيم أفراد العائلة الواحدة المعتقلون ، كلما أمكن ، في المبنى نفسه ، ويخصص لهم مكان إقامة منفصل عن باقي المعتقلين ، مع التسهيلات الازمة للمعيشة في حياة عائلية .

كما نصت المادة ٧٤ من البروتوكول الأول الملحق باتفاقيات جنيف الأربع على جمع شمل الأسر المشتتة نتيجة المذابح والسلحة » .

[وفي تاريخنا الإسلامي] :

يذكر أن الخليفة العباسى المعتصم بالله أخذ أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة عمورية ، فأمر ألا يفرق بين أعضاء العائلات التي وقعت في الأسر .

(عن كتاب « الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري »
لأدم ميتز) .

[حتى في عالم الحيوان ، قال ابن مسعود : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فانطلق ل حاجته ، فرأينا حمراء - الحمراء والحمراة : طائر من العصافير ، وجمعها : الحمر - والحمرا ، [اللسان : حمر] - معها فرخان ، فأخذنا فرخينها ، فجاءت الحمراء تُعرِّش - التُّرْيِش : أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها ، [اللسان : عرش] فجاء النبي ﷺ فقال : من فجمع هذه بولدها ؟ رَدُوا ولدتها إليها » .

وفي الحديث الشريف : رأت بَغْيَةٌ من بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَلْبًا يَطِيفُ بِرَكِيَّةٍ - بَئْرٍ - قَدْ كَادَ يَقْتَلُهُ الْعَطْشُ ، فَنَزَعَتْ مَوْقَهَا

ـ خُفْهَا ـ فاستقْتَ بِهِ فسقْتَهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ ، (رواه البخاري و مسلم) .

واشتدَ عطشَ رجلٍ بطريقٍ فنزلَ بئراً فشربَ منها ، ثمْ رقَيَ ، فإذاً كلبٌ يلهثُ الشَّرْى من العطشِ ، فقالَ : لقد بلغَ هذا من العطشِ مثلَ الَّذِي كانَ بلغَنِي ، فنزلَ في البئرِ ، فلأَ خُفْهَ ثمْ أمسكَهُ بفِيهِ حَتَّى رقَيَ ، فسقى الكلبَ ، فشكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ، فقالُوا : يا رسولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا في هَذِهِ الْبَيَانِ لِأَجْرٍ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « فِي كُلِّ كَبِيرٍ رُطْبَةٌ أَجْرٌ » ، (رواه البخاري و مسلم) .

و جاءَ في (شجرة المعارف ، ص ١٦٨) للعزَّ بن عبدِ السَّلَام ، تحتَ عنوانَ : الإِحْسَانُ إِلَى الدُّوَابِ المَلْوَكَةُ : وذلكَ بالقيامِ بعِلْفَهَا ، أو رعِيَّها بِقَدْرِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَبِالرُّفْقِ فِي تَحْمِيلِهَا وَمَسِيرِهَا ، فَلَا يَكُلُّهَا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَبِأَنَّ لَا يَجْلِبَ مِنْ أَلْبَانِهَا إِلَّا مَا فَضَلَّ عَنْ أَوْلَادِهَا ، وَأَنَّ يَهْنَأَ يَطْلِي بِالْقَطْرَانِ ـ جَرِبَاهَا ، وَيَدَاوِي مَرْضَاهَا ، وَإِنْ ذَبَحَهَا فَلَيَحْسَنْ ذَبَحَهَا ، بَأْنَ يَعِدُ شَفَرَتَهُ ، وَيَسْرُعُ جَرَّتَهُ ـ جَذْبَهُ ـ مَعَ

إضجاعها برفق ، وأن لا يتعرض لها بعد ذبحها حتى تبرد ، وإن
كان بعضها يؤذى ببعضه أو غيره ، فليفرق بينها وبين
ما يؤذيها ..

وقال عليه السلام : « إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها
من الأرض ، وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نقائصها » ، وفي
شرح النووي لصحيح مسلم : النقى هو الملح ، - ملح العظام -
والمعنى : يذهب نقائصها ، ورئاكلت ووقفت] .

[٦]

نظم البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧ والملحق بأحكام اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ وسائل استخدام القوة العسكرية وقيود هذا الاستخدام .

المادة ٤٠ : « يحظر الأمر بعدم إبقاء أحد على قيد الحياة ، أو تهديد الخصم بذلك ، أو إدارة الأعمال العدائية على هذا الأساس » .

المادة ٤١ : « لا يجوز أن يكون الشخص العاجز عن القتال علّا للهجوم ، والمعروف أنّ الأسرى والجرحى يعتبرون عاجزين عن القتال » .

المادة ٧٦ : « يجب أن تكون النساء موضع احترام خاص ، وأن يتّبعن بالحالية ، ولا سيما ضد الاغتصاب والإكراه على الدّعارة » ^(١) .

(١) * ذكرت الأمم المتحدة في تقديراتها أنّ عشرين ألف فتاة مسلمة اغتصبـن

المادة ٧٧ : « يجب أن يكون الأطفال موضع احترام خاص ، وأن تكفل لهم حماية خاصة » .

يقابل ما سبق في الصيغة ذاتها :

« إذا هزموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، ولا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تعذبوا النساء بأذى وإن شتمكم وشتمن أمراءكم ، واذكروا الله لعلكم ترحون » .

[من وصايا الخليفة علي بن أبي طالب لجنوده ، عن كتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد] .

☆ ☆ ☆

= في البوسنة والهرسك ، [لندن - هيئة الإذاعة البريطانية - مسام : ١٩٩٥/٤/١٥] ، ناهيك عن المقابر الجماعية التي اكتُشفت بعد وقف إطلاق النار ، وخصوصاً في الأشهر الأولى ١٩٩٦ م .

نصت اتفاقيات جنيف الأربعية لعام ١٩٤٩ على حظر المعاملة الشاربة ضد ضحايا النزاعات المسلحة ، وهذا أمر واضح الدلالة على ضرورة احترام حقوق الضحايا ، ويتميّز القانون الدولي الإنساني عن سائر قواعد القانون الدولي العام بهذه الصفة .

وتنص المادة ٢٠ من البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧ المكمل لأحكام اتفاقيات جنيف الأربعية لعام ١٩٤٩ على أنه « يحظر الردّع ضد الأشخاص والأعيان » .

[وجاء في نصف الصفحة المقابل لهذا النص] :

اضطُرَّ الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان عند عقد معاهدة صلح مع الروم ، أن يأخذ منهم رهائن ، ضماناً لغدرهم ، ولكنهم غدروا به ، فرداً عليهم الرهائن قائلاً : « إنَّ مقابلة الغدر بالوفاء ، خير من مقابلة الغدر بالغدر » .

(عن كتاب « تاریخ الرُّسُل والملوک » لابن جریر الطّبّری) .

[لم أعثر على هذا النص في (الطّبّری) في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ومن الشواهد المناسبة في صدد نص المادّة ٢٠ من البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧ ، المكّل لأحكام اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ :

- موقف رسول الله ﷺ عند فتح مكّة ، حيث قال : « يامعشر قريش ، ويا أهل مكّة ، ما ترون أني فاعمل بكم ؟ » ، فأجاب سهيل بن عمرو : تقول خيراً ، ونظنّ خيراً ، أخْ كريم ، وابنُ آخر كريم وقد قدرتَ ، فقال ﷺ : « أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب - أي لا تسانيب ولا لوم - عليكم الیوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فلأنتم الطّلقاء » .

- وتسامح المسلمين الفاتحین عند فتح دمشق ، والقدس ، والإسكندرية ، والذیل - قرب كراتشي حالیاً - جاء في (فتح

السند ٢٢٨٢) : « وعامل المسلمين الأهالي معاملة حسنة وشهامة » ، وجاء في الصفحة ٢٤٧٠ : ثم أعطى الأمان للصناعة والتجار وعوام الناس ، وتركوا بعضاً من أسراهـ . المحاربين - وتشكلت محكمة لرد المظالم ، وترك البراهة . رهبان المعابد وحكاؤها - وأعطاهـ محمد بن القاسم الأمان .. » .

☆ ☆ ☆

تنص المادة ١٤ من الاتفاقية الثالثة على أن « لأسرى الحرب ، في جميع الأحوال ، حق احترام أشخاصهم وشرفهم ، وأنه يجب معاملة النساء من الأسرى بكل الاعتبار الواجب لجنسهن ، وفي جميع الأحوال يجب أن يحصلن على المعاملة الحسنة نفسها التي يعامل بها الرجال » .

[يقابل هذا النص] :

بعد انسحاب جيش خالد بن الوليد من حصار دمشق ، أسر الروم جزءاً من مؤخرة الجيش ، كانت فيه النساء والأطفال ، وكان بين النساء (خولة بنت الأزور) وعدد من عجائز تبع وحميريَّة ، اللائي اعتدن ركوب الخيل ، وخوضات الليل ، والمجوم على القبائل .

وفي محاولة للدفاع عن كرامتهن وشرفهن ، حضرت خولة النساء أن يحملن أعمدة الخيام ، ويحملن بها على جند الروم ، فلعل الله ينصرهن أو يسترحن من معركة السبي .

وكان خولة في مقدمته تنشد :

نحن بنات ثبع وحمير

وضربنا في القوم ليس ينكر

وحيينا وصل جيش خالد ليخلصهم ورأهن بقاتلن قال :
« لا عجب من ذلك ، إنهن بنات العمالقة ونسل التباعية » ،
(عن كتاب « فتوح الشام » للواقدى) .

(الدليل الأقوى ، والذي يتناسب مع نص المادة ١٤ من
الاتفاقية الثالثة المتعلقة بحصول النساء على المعاملة الحسنة التي
يُعامل بها الرجال ، التالي :

مر رسول الله ﷺ يوم حنين بامرأة مقتولة ، والناس
يجمعون عليها ، مما يدل على أن هذا الحادث مرفوض
ومستغرب ، ومستهجن نادر ، فأرسل إلى خالد بن الوليد :
« إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً ، أو امرأة ، أو عسفاً » ،
أي : أجيراً ، ولسا وقف ﷺ عليها قال : « ما كانت هذه
للتقاتل ، ونهى عن قتل الذريّة » ، (ابن سعد ١٥١/٢ ، السيرة
النبوية لابن كثير ١٢٨/٢ ، ابن هشام ٧٥/٤) .

وفي [الطبرى ٤٥٤٠] : ثقت صفية بنت الحارث على
ودعت عليه : يا علي ، يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجماعة ، أينتم
الله بنريك منك .. فلم يرد عليها شيئاً ، واقتصر أحدهم بمعاقبتها ،
فغضب على ، وقال : صنه ، لا تهتكن سترأ ، ولا تدخلن داراً ،
ولا تهجن امرأة بسأدى وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أمراءكم
وصلاحكم ، فإنهن ضعاف ، ولقد كنا نؤمر بالكافر عنهن وإنهن
لشركات ، وإن الرجل ليكافع المرأة ويتناولها بالضرب ، فيتغير
بها عقبه من بعده ، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به
شرار الناس .

وأنهك - كرم الله وجهه - رجلاً عقوبة ، ضربها مئة مئة
على يد القعقاع بن عمرو ، إنها رجلان من أزد الكوفة ، لأنهما
شتما عائشة رضي الله عنها :

قال الأول : جزيت عننا أمينا عقوبة .
وقال الآخر : يا أمينا توبى فقد خطيت [.

☆ ☆ ☆

نظمت الاتفاقية الأولى لعام ١٩٤٩ ، المتعلقة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوات المسلحة في الميدان ، قواعد احترام الوحدات والمنشآت الطبية ، فنصت المادة ١٩ على أنه « لا يجوز بحال ما الاعتداء على المنشآت الثابتة والوحدات الطبية المتحركة التابعة للخدمات الطبية ، بل تحترم وتحمى في جميع الأوقات بواسطة أطراف النزاع ، وإذا سقطت في أيدي الطرف المعادي يترك لأفرادها حرية مواصلة واجباتهم .. » .

وقد أكدت على احترام حماية أفراد الخدمات الطبية وأفراد المئات الدينية المادة ١٥ من البروتوكول الأول المكمل لأحكام اتفاقيات جنيف .

قابل هذا النص :

دخل عليٌّ بن أبي طالب البصرة بعد موقعة الجمل بثلاثة أيام ، وكانت عائشة أم المؤمنين تنزل في دار عبد الله بن خلف

الخزاعي ، وكانت أعظم دار في البصرة ، وكان عليّ يعلم أنَّ في حُجَّرات الدَّار الكثيرة ، عدداً كبيراً من المرضى ، من أصحاب عائشة الذين اشتركوا في قتاله في موقعة الجمل ، أوّلهم عائشة في هذه الدَّار ، وأمرت بتريضهم حتَّى يبرُّوا .

ورغم علم علي بوجودهم ، إلَّا أنَّه ذهب لزيارة عائشة هو وأصحابه ، وانصرف وكأنَّه لا يعلم شيئاً ، [عن كتاب : (الفتنة الكبرى) لطه حسين ^(١) .

(١) المصدر الأوثق : جاء في الطبرى ٥٣٩/٤ و ٥٤٠ : « دخل على عائشة فسلم عليها ، وقعد عندها » ، وأشار إلى الأبواب من الدَّار ، وأخبر عليّ بمكان المرضى ، فتغافل عنهم .

أشارت اتفاقية جنيف الأولى لعام ١٩٤٩ المتعلقة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوات المسلحة في الميدان ، إلى تنظيم دفن الموتى ، واحترام جثثهم ، وإجراء الدفن وفقاً للطقوس الدينية حسبما تسمح الظروف [المادة ١٧] .

كما نظمت المواد ١٨ وما بعدها من الاتفاقية الثانية ، بشأن تحسين حالة الجرحى والمرضى والفرق بالقوات المسلحة في البحار ، الإجراءات الواجب اتباعها للبحث عن جثث الفرق وأسلوب دفنهما حسب الطقوس والأعراف الدينية .

كما ألمت المادة ٢٤ من البروتوكول الأول باحترام رفات الأشخاص الذين يتوفون بسبب الاحتلال ، أو أثناء الاعتقال ، أو بسبب العمليات الحربية .

يُقابل هذه النصوص :

حمل عتبة^(١) بن عامر الجهمي إلى الخليفة أبي بكر الصديق رأس أحد القتلى من المشركين ، فغضب أبو بكر لذلك ، وكتب إلى قواده :

« لا يُحمل إلى رأس ، وإلا بغيتم - أي جاوزتم الحد للتشفي - ولكن يكفيك الكتاب والخبر » ، (شرح كتاب (السير الكبير) محمد بن الحسن الشيباني) .

[من آداب الإسلام في الجهاد : عدم التمثيل بالقتيل ،

(١) في الأصل : عتبة ، وصوابه : عقبة بن عامر الجهمي ، حل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه رأس يَساقُ الْبَطْرِيقَ ، فأنكر ذلك ، فقيل له : يا خليفة رسول الله ، إنهم يفعلون ذلك بنا ، قال : فائِتَنَانِ بِفَارِسِ وَالْأُرُومِ ؟ لا يُحمل إلى رأس ، إنما يكفي الكتاب والخبر .

وفي رواية : قال لهم : لقد بغيتم ، أي تجاوزتم الحد .

وفي رواية : كتب إلى عماليه بالشام ، لا تبعثوا إلى برأس ، ولكن يكفيك الكتاب والخبر .

شرح كتاب السير الكبير للشيباني ١١٠/١

معهد الخطوطات بجامعة الدول العربية / ١٩٥٧ م

قال عليه السلام عندما رأى الحزنة - بعد أحد - قد يُقْرَب بطنه عن كبدِه ، ومثلَّ به : « لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأُمثِّلُ بثلاثين رجلاً منهم » ، وقال المسلمون لَمَّا رأوا حزن رسول الله عليه السلام وغيظه على ما فعلَ بعمَّه الحزنة : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر ، لِمُثَلِّنَ بهم مثلاً لم يُثَلِّها أحد من العرب ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في قول رسول الله عليه السلام ، وقول أصحابه : (وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاكِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبَرْكَ إِلَّا بِسَالَةٍ وَلَا تَخْرُنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُخْسِنُونَ) ، [التَّحْلِيَّةُ : ١٣٦-١٣٨] ، فعفا رسول الله عليه السلام وصبر ونهى عن المثلة ، وقال عليه السلام : « بِلْ نَصِيرٌ ، وَكَفَرَ عَنْ يَمِينِهِ » ، (ابن هشام ٢٩٢ ، السير الخلبيّة ٢٦١/٢ ، الروض الأنّزه (مخطوطة) ورقه ٤ ، البداية والنهاية ٤٠/٤ ، السيرة النبوية لابن كثير ٧٩/٣) .

☆ ☆ ☆

نصت المادة ٣٧ من البروتوكول الأول المكمل لأحكام الاتفاقيات جنيف الأربعية لعام ١٩٤٩ على حظر الغدر ، حيث يحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسره بالتجويع إلى الغدر ، ويعتبر من قبيل الغدر تلك الأفعال التي تستثير ثقة الخصم ، مع تعمّد خيانة هذه الثقة ، والتي تدفع الخصم إلى الاعتقاد بأنّ له الحق ، أو أنّ عليه التزاماً يمنع الحياة طبقاً لقواعد القانون الدولي التي تطبق في النزاعات المسلحة ، ولا شكُّ أنّ توقيع اتفاقية تلزم أطرافها باحترامها .

نصت المادة الخامسة من اتفاقية جنيف الرابعة على قواعد معاملة المختطفين مرتكبي أفعال الغدر والخيانة والجاسوسية ، قبل المادة ٣٧ المطبوعة بالفعل .

أثنا في العلاقات الدوليّة في الإسلام :

أخبر عمير بن الأسعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بأنّه : « بين المسلمين والروم مدينة يقال لها عربسوس ، وأنّهم

يخبرون عدوَنا بعوراتنا ، وقد بدت منهم الخيانة فلا يظهروننا على عورات الرُّوم » .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إذا رجعت إليهم ، فخيرُهم أن تعطِّيهِم مَكَانَ كُلَّ شَيْءٍ شَاتِينَ ، وَمَكَانَ كُلَّ بَقْرَةٍ بَقْرَتِينَ ، وَمَكَانَ كُلَّ شَيْءٍ شَيْئَينَ ، فَإِنْ رَضَا فَأَعْطِهِمْ إِيَّاهَا وَأَجْلَهُمْ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، وَإِنْ أَبُوا ذَلِكَ فَانْبِذُ إِلَيْهِمْ ، وَأَمْهَلْهُمْ سَنَةً ، ثُمَّ حَارِبْهُمْ » ^(١) .

(عن كتاب (الشُّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْقَانُونُ الدُّولِيُّ الْعَامُ)
لِلْمُسْتَشَارِ عَلَى مُنْصُورٍ) .

(١) « إِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خَيَانَةً فَانْبِذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنَينَ » ، [الأنفال : ٥٨/٨] ، جاءَ فِي [صِفَوَةُ التُّسَابِيرِ ٥١١/١] :
إِنْ أَحْسَتْ يَا مُحَمَّدَ مِنْ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ خَيَانَةً لِلْعَهْدِ وَنَكَّشَّا بِسَارَاتِ
ظَاهِرَةِ ، اطْرَحْ إِلَيْهِمْ عَهْدَمْ عَلَى يَيْنَةِ وَوْضُوحِ مِنَ الْأَمْرِ ، قَالَ النَّحَاسُ :
هَذَا مِنْ مَعْجزِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا يُوْجَدُ فِي الْكَلَامِ مُثْلِهِ عَلَى اخْتِصَارِهِ
وَكُثْرَةِ مَعَانِيهِ ، وَالْمَعْنَى : وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ - بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ - خَيَانَةٌ
فَانْبِذُ إِلَيْهِمُ الْعَهْدُ ، أَيْ قُلْ لَمْ قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَهْدَكُمْ ، وَأَنَا مُقَاتِلُكُمْ ،
لِيَعْلَمُوا ذَلِكَ فَيَكُونُوا مَعَكَ فِي الْعِلْمِ سَوَاءً ، وَلَا تَقْاتِلُهُمْ وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ
وَهُمْ يَتَّقُونَ بِكَ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ خَيَانَةً وَغَدْرًا ، (تَفْسِيرُ الْقَرْطَبِيِّ ٢٢/٨) .

ألزمت المادة الأولى من اتفاقية لاهاي الثالثة لعام ١٩٠٧ الأطراف المتعاقدين بـألا يسمؤوا ممارسة أعمال الحرب قبل إخطار سابق لالبس فيه ، ويكون إما في صورة إعلان حرب بسبب إنذار نهائي تذكر فيه الدولة موجهة الإنذار طلباتها ، وتطلب إجابتها ، وإلاً اعتبرت الحرب قائمة .

إلا أن اتفاقية لاهاي لا تتضمن جزاء معيناً على الطرف المتسئب في نشوب الحرب ، ومن ثم يخضع إعلان الحرب لقواعد المسؤولية الدولية التي يعالجها القانون الدولي العام .

عالجت المادة ٤٩ من الاتفاقية الرابعة حظر قيام دولة الاحتلال بترحيل السُّكَان المدنيين سواء فردياً أم جماعياً من الأرض المحتلة ، كما حرمت على دولة الاحتلال أن تقوم بنقل بعض سُكَانها المدنيين إلى الأرض التي احتلتها ، وذلك قبل المادة المطبوعة بالفعل ، وهي اتفاقية لاهاي .

يقابل هذا في الإسلام :

وفد قوم من أهل سمرقند⁽¹⁾ على الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، وشكوا إليه قتيبة بن مسلم الباهلي ، حيث دخل مدینتهم غدراً ، وأسكن فيها المسلمين ، فكتب عمر إلى واليه في الولاية المجاورة⁽²⁾ ، وأمره بأن يرفع شكواهم إلى القاضي ، فبيان ثبتت الواقعة يأمر بإخراج المسلمين من سمرقند ، وقام القاضي جمیع بن خاطر الباجي⁽³⁾ بتحقيق الواقعة ، وأمر بإخراج المسلمين من المدينة .

(عن كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري)⁽⁴⁾ .

☆ ☆ ☆

(1) سمرقند : من أشهر مدن ما وراء النهر ، وهي قصبة الصُّفَنْد ، (معجم البلدان ٢٤٦٢) .

(2) الوالي هو : سليمان بن أبي السُّرْي ، والي سمرقند ذاتها .

(3) القاضي هو : جمیع بن حاضر الناجي .

(4) بل هي في الطُّبُرِي ٥٦٧/٦ وما بعدها ، وليست في (فتوح البلدان) ، حتى إنَّ اسم القاضي جمیع بن حاضر الناجي لم يرد مطلقاً في (فتوح البلدان) .

ست كلمات تلخص كلَّ القانون الدُّولي الإنساني ، قالها رسول الله ﷺ : « أَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَة ، وَأَنَا نَبِيُّ الْمَلْحَمَة »^(١) ، أي لا يجوز الخوض في الملحمَة ، إِلَّا وَأَنْتَ حُكُوم بضوابط الرَّحْمَة ، فحين الضرُورة الحريَّة ، وبعد محاولات صادقة لدفعها ، لانسى ، ولا تخلُّ عن الرَّحْمَة ، عن الإنسانية .

بينما في القانون الدُّولي اليوم ، على الرغم من اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ م ، والبروتوكولين الأول والثاني لعام ١٩٧٧ م ، إذا تكلَّمت الأسلحة ، سكتت القوانين وأخرست ، أي لا ضوابط ، ولا رحمة ، ولا إنسانية .

والأصل أن تُنطق قُوَّةُ الْحَقُّ ، ولكن الناطق اليوم حقُّ القوَّة ، وبذلك يكون القانون الدُّولي (الإنساني) نظرة ما يجب أن يكون ، أو ماتنتَاه أن يكون ، ولكن لا ملاحقة لنتهك

(١) مسند الإمام أحمد ٤٢٩٥ : « أَنَا مُحَمَّدٌ وَاحِدٌ وَالْمَقْفُوٰ - آخر الأنبياء كَا فِي اللِّسَان : قَفَا - والخاتر - الَّذِي يَخْتَرُ النَّاسَ خَلْفَهُ وَعَلَى مُلْتَهُ دُونَ مُلْتَهُ غَيْرُهُ ، اللِّسَان : حَشَر - وَنَبِيُّ الرَّحْمَة ، وَنَبِيُّ التُّوْبَة ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَة » .

هذه القوانين ، ولا عقوبات على الدول التي تطبق الحق للقوة ،
ومجلس الأمن يطبق عقوباته على الضعيف الذي يرى وينادي
بالقوة للحق ، ولا عقوبات على من ينفذ الحق للقوة ، مع
عقوبات مؤلمة موجمة على دول أخرى مردّه خلل الكايل ،
وألاً رقيب ملزم للقانون الدولي (الإنساني) .

إنَّ القانون الدولي (الإنساني) توصيات ، وما يجب أن
يكون .

أما في الإسلام فهو جزء من عقيدة المسلم ، إنَّه دين
وعبادة ، فكرامة الإنسان الشخصية ، وعدم مساس المدنيين
ودور عبادتهم ، وموادهم الغذائية ، أو الغدر بهم ، الرحمة في
معاملة الأسرى ، حماية البيئة ، حماية المرأة والطفل والشيخ ..
مع تحريم التمثيل بالقتل .

ليست وصايا ، إنَّها جزء من دين ، جانب من عقيدة ،
فلا رأي ولا اجتهاد ، يعاقب ويثاب المسلم عليها .

فإن كان ٧٥٪ من أحكام القانون الدولي اليوم مقتبسة ،
أو موجودة في الإسلام ، فالإسلام بالأمس ، واليوم وغداً الرَّافد
الأغزر لِأَنْسَانَةِ الإنسان ، وعيشه في كنف الطَّبَانِيَّةِ والرَّحْمَةِ
وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْحَقَّةِ .



الباب الثاني

نهر

يبحث عن مجرى

الفصل الأول

المجرى الذي جَفَّ

في أوائل القرن التاسع عشر ، نوَّه فون جنتز Von Gentz [١٧٦٤ - ١٨٢٢ م] ، أمين سر مؤتمر برلين الشهير في تاريخ أوربة السياسي ، الذي انعقد في سنة ١٨١٥ م « أنَّ المجتمعين وعدوا من تلقاء أنفسهم بإقامة إصلاح عام شامل في أوربة ، كما ضهروا السُّلْمُ العَامُ » ، ولكنه ما فتئ أنَّ أعقابه في آخر تنوبيه بقوله : « إنَّ المؤتمر انتهى بغير أنَّ يقوم بأمر ذي بال ، أو يتدارس في نظام شامل ، أو يفكَّر في خير عام يمكن أن يكافئ الإنسانية على آلام حلتها مسدة طسوية ، أو يكفل لها السُّلْمُ في المستقبل »^(١) .

وهذا ما كان ..

(١) (الكتاب) : المجلد الثالث ، السنة الثانية ، الجزء الأول ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦ م ، ذي الحجّة ١٢٦٥ هـ ، ص ٢٦ .

كتب الكابتن ستيفنز بحثاً عنوانه : (قرن من الحروب فيما بين ١٨١٥ - ١٩١٥ م) ، فتبين أنه قد شنت في هذا القرن الحروب التالية :

بريطانية : ٣٨ حرباً مذئها ٦٤ سنة .

فرنسية : ١٧ حرباً مذئها ٥٨ سنة .

روسية : ١٢ حرباً مذئها ٢٨ سنة .

إيطالية : ٩ حروب مذئها ١٤ سنة .

المانية : ٦ حروب مذئها ١٠ سنوات .

الولايات المتحدة : ٥ حروب مذئها ١١ سنة .

اليابان : ٣ حروب مذئها ٦ سنوات .

أسباب هذه الحروب اقتصادية ، الحصول على المواد الخام الرخيصة لتعمل بها المصانع ، والتنافس على الأسواق العالمية لبيع ما أنتجته المصانع ، وهذا من العوامل التي أوجدت الاستعمار بصورةه البشعة ، وأثاره الدمرية .

مدنية الغرب ، مدنية التاجر ، مدنية المنفعة ، مدنية المنافسة على المال ، والمنافسة غير المقيدة بقيم ، برقيب ذاتي إلهي .. حيث لا ظلم ولا عُنف .^(١) منافسة تمحو فضيلة الإيثار ، وتبعده الجانب الإنساني حيث المخالفة المجرد هدف وغاية ، وحينما تنعدم الفضيلة ، وتُرفع لافتة الجشع : « أنا وليت الآخرون » ، الأمة من الناحية الاجتماعية في خطر ، لأنَّ المادة هي التي تقرر متانة الروابط أو وهنها .

وحيثما حُيئت القيم الأخلاقية ، وعُبّلت وسائل الإنتاج ، بدأ الخلل حتى في لبنة المجتمع الأولى (الأسرة) ، وأصبحت أزمة المدنية الغربية أزمة مادّية ، وهذا يخالف الفطرة الإنسانية حيث الروح والمادة ، وكلُّ ما يسبح ضد تيار الفطرة الإنسانية سينهار ، ولقد أدرك هذا السيناتور الأمريكي (وليم فولبرايت) الذي تولّى رئاسة لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس الأمريكي لعدة دورات ، وهو صاحب كتاب حماقة القوّة The

(١) العُنف : الأخذ على غير الطريق ، وكذلك التّعسُف والاعتساف (الصّحاح : عُنف) .

ـ Arrogance of Power حينما قال : « لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر ، ولكن أقدامنا [هنا على الأرض] غائصة في الوحل » ، حيث الانحلال الخلقي والاجتماعي ، حتى نكاح الم Harm ، حدث ولا حرج :

ـ أكثر من مليون طفل أمريكي يعتدى عليهم جنسياً سنوياً .

ـ ١٢ مليون طفل بلا أب - غير شرعيين - في أمريكا .

ـ مليون حالة إجهاض (إسقاط الحمل) سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية .

ـ مليون امرأة تلد سفاحاً في أمريكا ، أكثر من نصفهن في سن المراهقة .

ـ ١٧ مليوناً شاذون جنسياً في الولايات المتحدة الأمريكية .

ـ أسرة من كل عشر أسر أمريكية تمارس نكاح الم Harm ،

والرقم الحقيقي أكبر من ذلك ، فعدد كبير من حالات نكاح المحارم لا تصل إلى القضاء ، أو إلى الدوائر الصحية .

- وضحايا (الإيدز) بالمئات يومياً .

وفي أوروبا بشكل عام :

- مليونا حالة إجهاض سنوياً .

- ٧٥% من الأزواج يخونون زوجاتهم .

- ثمانية ملايين امرأة بالغة غير متزوجة في بريطانية ، ٩٠% منها يمارسن الجنس .

- حالة طلاق بين كل حالتين زواج في بريطانية .

- وفي بعض الكنائس يتم عقد قران الرجل على الرجل على يد القسيس^(١) .

(١) هذه الإحصائيات نشرت عام ١٩٨٥ ، انظر (رسالة الجامعة) ، العدد ٢٨٧ الصادر بتاريخ ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ ، اقتباساً من كتاب (الأمراض الجنسية) للدكتور محمد البشار ، وبعض أعداد (الشرق الأوسط) ، فالإحصائيات اليوم أرقامها مرعبة أكثر .

وفي رومانيا وصلت الإجهاضات في عام ١٩٩٣ إلى مستوى
خيف هو ٢٤٠٠ مقابل كل ١٠٠٠ ولادة^(١) .

وفي روسية اليوم أرقام الحجرية مذهلة مرعبة ، وما يذكر
هنا :

في الساعة الواحدة من ظهر يوم الخميس ١٩٩٠/٥/١٧ م ،
كنت الضيف الوحيد في محاضرة دعت إليها أكاديمية العلوم في
مدينة باكو عاصمة أذربيجان ، وكان المحاضر الدكتور قاسم
كريموف ، وهو أستاذ في أكاديمية العلوم في موسكو ، من أصل
أذري ، يتقن العربية .

عنوان محاضرته : البيرسترويكا (إعادة البناء) والإسلام

قبيل المحاضرة قدمت ، وعُرِّفَ بي .

بدأ المحاضر بوجز سريع عن تاريخ الإسلام ، ثم انتقل إلى
الإسلام في القرن العشرين . فقال : إن الإسلام يدخل أوروبا ،

(١) (إلى الأمام) العدد ٢٢٩١ ، ٢٢/١٥ ، ١٩٩٥/١٢/١٥ ، عن :

(L'Express 17 - 1994)

وذكر روجيه غارودي وإسلامه ، وبيع دور العبادة في أوربة وتحوبلها إلى مساجد ، وعرض صوراً لبعضها ..

ثم انتقل إلى الإسلام دين العلم مع الأديان والأخلاق .

ثم تحدث عن نهضة المدارس الشرعية في أذربيجان وبشكيريا .. وبعد أن قدم رأي عدّ من الدول بالبروسترويكا ، قدم رأي البلدان العربية أيضاً ، وعما قاله : سيفرح العرب كثيراً بحرثتنا ، ويمكن تأسيس قسم للشريعة في كل معهد استشراق ، في كل جمهورية إسلامية استقلت بعد تفكك الاتحاد السوفييتي ، وذلك لتعلم اللغة العربية ، ودراسة الإسلام .

وختم بلاحظة رائعة هي :

لاحظ الأكاديميون في جامعة موسكو في الخمسينات والستينات والسبعينات .. أن الجريمة والعصابات (المافيا) والمخدرات ، أقل بكثير في الجمهوريات الإسلامية . بالمقارنة - منها في أي رقعة أخرى من الاتحاد السوفييتي ، وراحوا

يتساءلون عن السبب ، فقال لهم الدكتور قاسم كريروف : لا تشكلوا اللجان ، ولا ترسلوا البعثات لمعرفة الأسباب ، إنّه سبب واحد ، إنّه أثر الإسلام في نفوس أبناء هذه الجمهوريات الإسلامية ، لقد حافظ على الأسرة متسلكة إلى حد كبير ، وليس هذا متواافق في المجتمع الروسي .

خرجت من قاعة الحاضرة وأنا أقول لمرافقي : إنّ أمر الإسلام عجيب مدهش ، إنّه يبقى في القلوب كامناً ، ثم تتفجر بثابعه في أجواء الحرية ، فأننا أرى عظمته فيكم ، وبعد سبعين سنة من الحكم الذي ناهض الأديان - والإسلام خاصة كما كانوا يقولون عند مهاجمة الأديان - علمكم إسلامي وكذلك شعاركم ، وستكلّمون اليوم في قاعة الحاضرات حيث عدد كبير من العلماء الأكاديميين وتقسّلون : نحن مسلمون ، وأذربيجان مسلمة ، ولا توتر بين السنة والشيعة ، هنا ماتنتناه عندنا في أذربيجان ونتناه عالمياً أيضاً ، فأيّام النبي عليه السلام لا سنة ولا شيعة ، مسلم وكفى .

وفي مساء يوم هذه المحاضرة (الخميس ١٩٩٠/٥/١٧ م)
دعاني خال مراافقى الأستاذ ميرجلال يوسف ، واسم خاله
سليم ، كان يدرس مادة الفكر المادى في الجامعات والمعاهد
العالية ، قلت له : وماذا تدرس اليوم يا أستاذ سليم ؟ فأجاب :
الفلسفة الإسلامية ، لأنني إن تحدثت اليوم عن المسادىة
الذى الكتبية تتعالى ضوابط الطلبة ، ويبذلون بمقدار قاعة
المحاضرات ، إنهم اليوم يحبون أن يسمعوا شيئاً عن الإسلام .

ووجه إلى الأستاذ سليم هذه الأسئلة :

- ما الأديان التي كانت في جزيرة العرب قبل الإسلام ؟
- ما أعظم حديث في حياة محمد ﷺ ؟ حدثني عن أشياء هامة ثم عن حديث بارز في حياته ﷺ .
- وماذا عن السيد المسيح وأمه مريم ؟
- وما الفرق بين السنة والشيعة ؟
- وماذا عن المجزمة الصليبية الواضحة على العالم الإسلامي ؟

لقد أراد الأستاذ سليم الإجابات موضحة بالصورات والألوان التي أعدّها مسبقاً ، مع تسجيل خطّ لكل إجابة يضمُّ الأفكار الرئيسيّة .. ثمّ قال لي : هذه موضوعات حاضراتي القادمة ، فلا تخجل على شيء ، شرحاً ورسماً وتوضيحاً ..

وبعد إجاباتي عما سأله ، وبعد تناول العشاء ، أصرّ على جولة ليلية في باكو بسيارته الخاصة ، وراح يعبر عن تأثيره بما قلت ، ويظهر إعجابه بالإسلام السمع الحب للناس كافة ، وفي ختام الجولة الليلية أقسم إلّا أن يحمل بعض الحاجيات التي كانت معه من السيارة إلى غرفتي في الفندق ، تقديراً واحتراماً لعربي مسلم أفاده .

وعاد الأستاذ سليم بعد يومين ، وأمضيت معه يوماً كاملاً في ضواحي باكو ، وأهم ما زرناه في ذلك اليوم معبد النار والمتاحف المحيط به ، والنار الأبدية المشتعلة من تسرب الغاز الطبيعي المنطلق عند سفوح جبال قريبة من باكو .

☆ ☆ ☆

ذكرت (الميرالد تريبيون : ١٩٧٩/٧/٢٨ م) :

« منذ سقوط الأندلس والإسلام يكاد يكون غير مترج في أوربة ، وهو اليوم يزبغ من جديد عبر القارة ، فالمآذن ترتفع في أوربة ، وترتبط صحوة الإسلام في أوربة بصحوته في بلاده .. والإسلام ليس ديانة بالمعنى الضيق للكلمة ، ولكنه طريقة كاملة للحياة ، وهو يصوغ الموقف الاجتماعي ونماذج السلوك لن يتبعونه ، طعامهم وملابسهم وزوجاتهم وحياتهم الأسرية وتعاملاتهم الاقتصادية » .

إن اعتناق الإسلام من قبل الأوربيين اليوم ، بعد دراسة وقناعة ، بعيداً عن العنف ، لدليل على حواريته وعقلانيته ، وأن آفاقاً جديدة تتفتح تثبت صلابته وقوّة مبادئه ورسوخها في الحق ، فهو يزدهر في الظروف الصعبة وينتشر .

وعلى الرغم من حملة الإعلام الغربي المدروسة والمركزة ، مع إصراره على إبعاد الأمة الإسلامية من التاريخ ، وجعلها (العدو - المُتوهم - القادر من الجنوب) ، خصوصاً بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة ، وقولهم : إن التاريخ

قد انتهى ، إِنَّه قد توقف .. على الرَّغم من كُلِّ هذَا ، الإِسْلَام
- عالِيًّا - الْأَوَّلُ وَالْأَقْدَرُ عَلَى كَسْبِ الْأَتِيَاعِ بِاعْتِرَافِهِمْ .

« إِنَّ التَّارِيخَ قَدْ انتَهَى » مِقْوَلَةُ قَابِلَةٍ لِلْعَوَارِ ، خَاضِعَةٌ
لِلنَّقْدِ وَالنَّقْضِ ، لِأَنَّ الإِسْلَامَ عِقِيدَةٌ وَمِنْهَجٌ وَسُلُوكٌ سِيَصْنَعُ
الْتَّارِيخَ فِي قَادِمَاتِ السَّنَنِ ، فَهُوَ يَتَلَكَّ قَدْرَةً عَجِيبَةً عَلَى
تَحْوِيلِ خَصْوَمِهِ إِلَى أَنْصَارٍ ، فَهُوَ يَقاوِمُ التَّيَارَ الْمُنْحَرِفَ ، وَيَجْدَدُ
النُّفُوسَ ، وَيُرْقِي بِهَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَقَّةِ .

وَلَقَدْ قِيلَ بِحَقِّ « إِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي تَسْبِقُ السَّحْرِ أَكْثَرُ
سَاعَاتِ اللَّيْلِ ظَلَاماً » ، فَالسَّحْرُ وَالْفَجْرُ نَتِيْجَتَانِ مِعَاكِسَتَانِ
لِتَلْكَ الْمَقْدَمَةِ ، فَعَصَرَ النُّهُضَةَ نَتِيْجَةً مِعَاكِسَةً لِفَتْرَةِ الرُّكُودِ .

« وَاللَّيْلُ إِنْ طَالَ غَالَ الصُّبُحَ بِالْقِصْرِ » .

الفصل الثاني

النَّهْرُ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ مَجْرِي

مع أنَّ الإسلام شيء ، والملمون في واقعهم اليوم شيء آخر ، إنَّ الإسلام دين القرن الواحد والعشرين ، وفي عقوده الأولى ، لأنَّه :

١ - دين الفطرة : (فَإِنَّمَا مَنْهَى رَبِّكَ بِالنَّاسِ عَنِ الْمُسْتَقِيمِ إِنَّمَا هُوَ لِغَيْرِ الْمُنْتَهَى) [الروم : ٢٠-٢١] .

٢ - ولأنَّه دين الإيمان المبني على العقل والقناعة بعد الحوار والتفكير : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَغْقِلُونَ بِهَا ..) [الحج : ٤٧-٤٨] .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّا
يَسْذَكِرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٦٣] ، ﴿ وَقُلْ رَبُّ زِدْنِي
عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤/٢٠] .

٢ - ولأنه الدين الذي لا يخشى التقدُّم العلميَّ منها يُثْمِّ
العلم ويرتسي : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠/٢٩] .

٤ - ولأنه الدين الذي لا يضيره أن يبقى أبناء الشَّرائِعِ
الأُخْرَى ضمن المجتمع الإسلامي على عقليَّتِهِم ، مع الكِرَامَةِ
واعتراف بالآخر : ﴿ قُلْ أَغَيْرُ اللَّهِ أَبْغِي رَبِّيَا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ
شَيْءٍ وَلَا تَكُسِّبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُّ وَازْرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى
ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيَنْبَغِي لَيْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [هُود: ١٦٤/٦] ،
[الأنعام: ٢٥٧/٢] ، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ
فَمَنْ يَكْفُرُ بِالظُّنُونِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧/٢] .

٥ - ولأنه دين العدالة الاجتماعية ، مجتمع الإيثار والرحمة والإنسانية : هـ ويسؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خاصية هـ ، [الحضر : ١٥١] .

٦ - ولأنه دين متجدد لا جمود فيه ، فحيثما تكون مصلحة المسلمين - كما يقول الشاطئي - فثم شرع الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَنَا إِسْتِجْيَابًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يَخْيِكُمْ ﴾ ، (الأنفال : ٢٤/٨) ، ولم يَسْتَدِعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ الْكَرِيمُ ﷺ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَا يَحِييُّهُمْ .

٧ - ولأنه دين الحياة المتوازنة المطمئنة ، فيها الروح لا تنكر المادة ، والمادة لا تطغى على الروح .

وفيها الطيب حلال ، والخبيث حرام ، مع الاعتدال
والوسطية .

﴿ .. يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَعْلَمُ لَهُمْ
الطَّيِّبَاتَ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَايِثَ ﴾ ، [الأعراف : ١٥٧٧] ،
﴿ وَابْتَغِ فِيَّا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَشْرَنَّ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

وأحسنَ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } ، [القصص : ٢٨/٢٧] ، { قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيَّابَاتِ مِنَ الرَّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تُفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ، [الأعراف : ٢٢٧] ، { لَهُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ، [يونس : ٦٤/١٠] .

٨ - ولأنه دين القيم التي تحفظ المجتمع كله معاشر سليماً،
الطفل فيه يتربص في أسرة ترفرف عليها المودة والرحمة :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِ يَقُولُمْ يَتَفَكَّرُونَ } ، [الرُّوم : ٢١/٢٠] .

فالمرأة فيه محترمة بنتاً، وأختاً، وزوجة^(١)، أمّا أمّا
تقدّمت بها السنون فقد كرّمها البيان القرآني بقوله :

(١) لمس ذلك الدكتور مراد هوغان فقال في كتابه (يوميات ملائكة مسلم) عن مساواة المرأة بالرجل :

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الْذَّلِيلَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمَهُمَا
كَمَا رَبَّيَنِي صَغِيرًا ﴾ ، [الإسراء : ٢٤/١٧] .

٩ - ولأنه الدين الذي يقدس الزَّمن ويحترم الحياة ،
فالوقت هو الحياة :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الْلُّغُو مَغْرِضُونَ ﴾ ، [الؤمنون : ٢٧/٢٢] ،
﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهُدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُوا بِاللُّغُو مَرُوا كِرَاماً ﴾ ،
[الفرقان : ٧٢/٢٥] ، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللُّغُو أَغْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا أَنَا
أَعْهَلُنَا وَلَكُمْ أَغْهَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تُبْتَغِي الْجَاهِلُونَ ﴾ ،
[القصص : ٥٥/٢٨] ، ﴿ وَلَا تَقْفَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
وَالبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴾ ،
[الإسراء : ٣٧/٧] .

وعلمنا الإسلام أنه « من حُسن إسلام المرء تركه
مَا لا يعنيه » .

= المساواة في الكرامة مع اختلاف الأعباء .
والمساواة في المنزلة مع اختلاف الأدوار .
والمساواة في القيمة مع اختلاف القدرات .

١٠ - ولأنه دين عالمي إنساني ، يخاطب الناس ، كل الناس على اختلاف أسلوبهم وعروقهم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ، [الحجرات : ١٢/٤٩] .

وخطبة الرسول الكريم ﷺ في حجّة الوداع قررت أنّ الناس سواسية « في أي إهابٍ بربوا ، وعلى أي حالٍ كانوا ، فوق أي مستوىٍ تربعوا ». .

(وَلَقَدْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ) ، [الإسراء : ٧٠/١٧] .

☆ ☆ ☆

ويبقى الإسلام قوياً

من الإسلام والمسلمون بواقف حاسمة ، وبفترات حرجية ، على مدى ألف وأربع مئة عام من مسيرته ، كل منها كان كافياً ليصبح الإسلام أثراً بعد عين ، ولكنه خرج منها معاذق قوياً ، وباعتراف مركز رصد انتشار العقائد في (برن) في سويسرا ، الإسلام هو الأول في اكتساب الأتباع ، الأول انتشاراً .

نتقي من هذه المواقف عشرة ، نعرضها موجزة جداً ، بتسلسلها الزمني .

☆ ☆ ☆

١٠

المهجرة ٦٢٢ م :

استهدفت قريش النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بذاته الشريفة : للقضاء على الرسالة في مهدها ، بعدما تنبّهت لخطر الموقف ، وأن زمام

الأمور قد أفلت من يدها ، بعد أن تجمّع المهاجرون في
يثرب ، وأصابوا بالأنصار منعة ، وما اجتاع المهاجرين
والأنصار إلّا لحّاية الدّعوة ، وبيناء مجتمع يعترف بحرّيّة اختيار
العقيدة .

وفي دار النّدوة قرّرت قريش قتل رسول الله ﷺ ،
بسیوف شباب يختارون من القبائل كافية ، ولن يقوم بنو
عبد مناف - قوم رسول الله ﷺ - على حرب قومهم جمِعاً ،
فيرضون بالذّية .

دَبَّرت قريش خطّتها ، ورسمت طريقة تنفيذها ليلًا
بدقة ، وقدّر رسول الله ﷺ الموقف ، فتدبّر أمره ، وخرج
بكلّ عزّة وطهانينة إلى دار أبي بكر الصّدّيق ليكون صاحبه في
هجرته ، في طريقه إلى معلق الإسلام في المدينة المنورة .

وفي ١٢ ربيع الأول (١٨ نووز ٦٢٢ م) وصل الرّكب إلى
قباء ، وأسس أول مسجد في الإسلام^(١) .

(١) للتوسيع انظر : (المجر حدث غير جرى التاريخ) المؤلف .

وفي المدينة المنورة استطاع عليه السلام أن يوحد كل المسلمين على اختلاف قبائلهم ، فجعل منهم أمّة واحدة ، أُلُف الإسلام بين قلوب أفرادها ، وأوجد التضامن بين أفراد تلك الجماعة على أساس أن الأخوة في الدين ، مقدمة على غيرها من الصلات ، حتى على صلة القرابة .

ولم يكن أمراً عارضاً أن تكون المدينة المنورة داراً للهجرة ، وملجأ للداعي ، ومقرأً للدولة الناشئة .

لقد أرادت قريش قتل رسول الله عليه السلام للقضاء على الإسلام ، فكانت الهجرة حيث قامت دولة الإسلام على أساس راسخة خالدة ، مع تهيئة الظروف لبقائهما ، في المجالين العربي وال العالمي .

وضاعت جهود قريش ، وخرج الإسلام من هذا الموقف الخامس متصرراً عزيزاً ، واتت الهجرة أكلها يانعة طيبة .

☆ ☆ ☆

أَحْد (شَوَّال ٢ هـ ، كَانُون الثَّانِي ٦٢٥ م) :

سارت قريش إلى المدينة المنورة ، والغيط يفتت كبدها ،
تريد شاراً بعد هزيمتها في بدر ، فكانت (غزوة أَحْد) ،
ورتب عليه خطّة ضفت النُّصر ، حتى انكشف المشركون عن
معسكرهم ، وولوا لا يلوون على شيء ، حينها فارق الرُّماة
مكانتهم الّذِي أَمْرَهُم عَلَيْهِ أن لا يفتقدهم ، ونهادهم أميرهم
عبد الله بن جبير عن مفارقة مواقعهم ، فقالوا : انهزم
المشركون ، فما مقامنا هنا ؟ وانطلقوا لجمع الغنائم .

وثبت عبد الله بن جبير مكانته ، وثبت معه دون العشرة ،
وقال : لا أجاوز أمر رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وانتهز خالد بن الوليد
خلاء الجبل من الرُّماة ، وقلة من بقي فيه ، فكر بالخيل ومعه
عكرمة بن أبي جهل بحركة التفاف بارعة ، فحمل ومن معه على
من بقي من الرُّماة ، فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير .

وانكشف المسلمون ، وأصاب العدو منهم ، حتى خلص المشركون إلى رسول الله ﷺ وقذف بالحجارة حتى وقع بجانبه ، وأصيّبت رباعيّته ، وشُجّ في وجهه ، وكُلِّمت شفته .

وعلى الرّغم من الموقف العسكري الذي جاء لصالح قريش ، كان ﷺ بارعاً في التّوجيه المعنوي ، لقد حفظ ﷺ معنويات جنده عالية مرتفعة ، حينما قال : « لا يصيّب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا » ^(١) .

وأزمع أبو سفيان ومن معه العودة إلى المدينة ، وقالوا : أصيّنا حسداً أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نتأصلهم ! لنكرّنَ على بقيّتهم فلنفرغنَ منهم .

وعلم ﷺ بذلك ، فسار والمسلمون في طلب أبي سفيان ومن معه ، ليعلموا أنَّ الذي أصاب المسلمين في أحد لم يكن ليوهنهم ، ورأى أبو سفيان معبدَ بن أبي معبد المخزاعي ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟

(١) البداية والنهاية ٤٧١/٤ ، ابن خلدون ٢٧/٢ ، التّيرة النّوية ٩٤/٢ .

قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله
قطُّ ، يتحرّقون عليكم تحرّقاً ، قد اجتمع معه من كان تختلف عنه
في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من المحنق عليكم شيء لم
أر مثله قطُّ .

أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال معبد : والله مساوري أن ترتحل حتى أرى نواصي
الخيل .

قال أبو سفيان : فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنسأصل
بقيتهم .

وعاد أبو سفيان إلى مكّة مكتفياً بصورة نصر ناله ، لا
يامكاناته العسكرية ، بل بسبب خالفة الرّماة .

إنّ سمعة الانتصار تكفيه لرّد سمعته بين القبائل ، محققاً
هدف إعلامياً ، إنّ النّصر الذي أحرزه أبو سفيان ، أحرزه
مغلوب منهزم ، أخطأ خصمه خطأ واحداً قرّر مصير المعركة

لصالح المغلوب المنهزم ، ولو لا الخطأ ما عرف النصر ، ولا أدرك
ثاراً ، فائز الانسحاب إلى مكّة^(١) .

ولم تتحقق قريش ما أرادت ، على الرغم من الخطأ الفادح
المرتكب ، والذي ساق إليها النصر ، فلم تستطع القضاء على
المسلمين ، ولم تتمكن من فتح طريق تجارتها إلى الشام .

وبقي الإسلام قوياً ، واجتاز الموقف الصعب ، وخرج منه
معافاً .

☆ ☆ ☆

- ٣ -

الخندق (شوال ٥ هـ ، شباط ٦٢٧ م) :

أراد المشركون القرشيون متحالفين مع يهود خيبر وغطفان
- مرتزقة العصر آنذاك - استئصال المسلمين ، فلو قدر لهم
النجاح فيها أرادوا وحشداً من أجله ، لـتغيير مجرى تاريخ

(١) غزوة أحد في سلسلة : غزوات الرسول الأعظم .

جزيرة العرب ، وتاريخ العالم كله ، لارتباط أحداث التاريخ العربي الإسلامي بأحداث الساحة العالمية بعده ، ولا سيما مع الدولتين العظمتين الفرس والروم .

قال اليهود لزعماء المشركين في مكة : إننا سنكون معكم عليه حتى نتأصله .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحب الناس إلينا من أعاينا على عداوة محمد .

سر زعماء قريش ب موقف زعماء اليهود هذا ، وتحالفوا عند الكعبة المشرفة أن لا يخذل بعضهم بعضاً ، ويكونوا كلهم يداً واحدة على محمد ما بقي منهم رجل .

وتجهزت قريش وأتباعها من القبائل ، وتجهزت غطفان ، وتجهز اليهود ، ونزلت جموعهم شمالي المدينة المنورة ، وتنقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين ، فصار المسلمون في ساعة من أشد ساعات الخرج ، حيث زاغت الأ بصار ، وبلغت القلوب المخاجر .

ومع كل ذلك ، كان رسول الله ﷺ مستبشرًا : « أعطيت مفاتيح اليمن ، أعطيت مفاتيح الشام والمغرب ، أعطيت مفاتيح فارس ، هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان ، وأخبرني جبريل أن أمّي ظاهرة عليها ، فأبشروا » ، « وليهلكن كسرى وقيصر ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » ^(١) .

وبعد حصار شهر ، أرسل الله رحيمًا وجنودًا لم يرؤها في ليلة شديدة البرد ، فكانت صفقة خاسرة ، وانسحب قريش وخلفاؤها ، بعد أن سارت تزيد استئصال المسلمين .

قال رسول الله ﷺ : « لن تغزوكم قريش بعد عاكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

(١) الخندق ، من سلسلة : غزوات الرسول الأعظم ، ومصادر الخندق : السيرة التبوية لابن كثير ٢١٠/٢ ، عيون الأثر ٥٧/٢ ، ابن هشام ١٢٠/٢ ، الطبرى ٣٣٢/٢ ، البداية والنهاية ٩٧٤ ، السيرة الخلبية ٢٢٢/٢ ، الاكتفاء ١١٥/١ .

وبعد الخندق ، توالت الانتصارات على المستوى الدُّعوي ،
ومن أسلم عاد إلى قبيلته داعياً بالحجّة ، حكماً العقل ، يتوج
ذلك كله (الكلمة الحكيمية الطيبة) ، خصوصاً وقد شعرت
القبائل أنَّ المبادأة أضحت بيد المسلمين ، وسينتقلون من انتصار
إلى انتصار ، حتى يضمُّ الإسلام تحت جناحه أرجاء الجزيرة
العربية ، ضمَّ توحيد وعدالة وألفة .

وهكذا ضاعت آمال المشركين في أمانهم ، وظلَّ الإسلام
معافٍ .

☆ ☆ ☆

- ٤ -

حروب الرَّدَّة (١١ هـ / ٦٣١ م) :

لقد وَطَسَّت انتصارات المسلمين في حروب الرَّدَّة كلَّ
ما حقَّته المرحلتان المكية والمدنية من عمر الدُّعوة ، فلولا عزيمة
الصَّدِيق رضي الله عنه ، وصدقه وإخلاصه لكان ما بَيْنَيَ في
مهبِّ الرِّيح .

- ٩٨ -

تأمّل المرتّدون خيراً حينما تولّى أبو بكر الصدّيق أمور المسلمين ، وظنّوا أنَّ الأمور قد انتهت ، وأنَّ زوال دولة الإسلام الناشئة في المدينة قاب قوسين أو أدنى ، واطّلّوا لأنَّهم سوف يواجهون في حربهم شيخاً رقيقاً تجاوز السُّنّين .

الارتداد (ثورة مضادّة) تتعلّق تنتائجها بصيرورة دولة ناشئة وليدة ، أُسّسها رسول الله ﷺ على التّقوى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَا كُمْ) ، [الحجرات : ١٢/١١] ، وهيّأها لتحمل رسالة الله سبحانه وتعالى إلى الناس كافة .

الارتداد (ثورة مضادّة) استهدفت الإسلام عقيدة ورسالة ونظاماً ، وبذلك استهدفت مستقبل الأمة كلّها .

وتجلّت عظمة الصّدّيق رضي الله عنه . التي كانت تنهل من معين المصطفىختار ﷺ - وظهرت في فهم ركن الزّكاة ، فلا مساومة على ركن من أركان الدين ، لأنَّ الزّكاة حقُّ المجتمع ، للقضاء على البوس والفقر والجوع والمرض والعوز .

وبأحد عشر لواء حملها بصدق وإخلاص أربع قادة في

التّارِيخ^(١) ، استطاعُ المُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
الْقَضَاءَ عَلَى الْأَرْتَدَادِ ، وَخَرَجَ الْإِسْلَامُ مِنَ الْمُخْنَةِ الَّتِي أَحْاطَتْ
بِالْمُسْلِمِينَ قَوِيًّا عَزِيزًا ، لِيَبْدأَ سُطْرَ صَفَحةَ عَالَمِيَّةِ خَالِدَةَ ،
حِرَوبَ تَحْرِيرِ وَفَتْوَحِ إِنْسَانِيَّةٍ وَصَلَتْ كَاشْفُ وَسَانْسُ وَبَوَاتِيَّهُ ،
وَحُوْضُ النَّيْجِيرِ وَأَعْمَاقُ سِيرِيَّةٍ^(٢) مَرُورًا بِأَسْوَارِ فِينَا .

☆ ☆ ☆

- ٥ -

الْفِتْنَةُ : (مَوْقِفُ آخِرِ حَاسِمٍ)

جَاءَ فِي الْبَدَايَةِ وَالنَّهَايَةِ ١١٩/٨ : « وَلَمْ تَزُلِ الْفَتْوَحَاتُ
وَالْجَهَادُ قَائِمًا عَلَى سَاقِهِ فِي أَيَّامِهِ فِي بَلَادِ الرُّومِ وَالْفَرْنَجِ وَغَيْرِهَا ،

(١) للتوسيع : حِرَوبُ الرَّذْدَةِ ، مِنْ قِيَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ .

(٢) سِيرِيَّةٌ : كَانَتْ جَزِئًا مِنَ الدُّولَةِ الْمُفَوِّلَةِ الَّتِي أَسْهَمَ بَاطِلُونَ بْنَ جِنْكِيزْخَانَ ، وَصَلَاهَا إِلَيْهَا بِوَاسْطَةِ الدُّعَاءِ مِنْ أَهْلِ بَخْارِيِّ وَقَازَانَ ،
الَّذِينَ شَقُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْبَلَادِ ، وَعَاشُوا مَعَ أَهْلِهَا ، وَلَا اعْتَنَقَ الْمُغْوَلُ
الْإِسْلَامَ وَتَحْمِسُوا لِهِ أَصْحَتْ سِيرِيَّةً بِلَادًا إِسْلَامِيًّا ، وَكَوَّنَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ
إِمَارَةً عَاصِمَتْهَا سِيرِيَّةً (تَحْرِيفٌ مِنْ صَابِرِيِّ) .

فلما كان من أمره وأمر أمير المؤمنين^(١) على ما كان ، لم يقع في تلك الأيام فتح بالكلية ، لا على يديه ولا على يدي علي ، وطبع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله ، وقهر جنده ودحاه ، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي ، تداني إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطبع فيه ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين لأصلح حن أنا وابن عمي عليك ، ولا أخرج حنك من جميع بلادك ، ولا أضيق حن عليك الأرض بما رحبت ، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف ، وبعث يطلب المددنة » .

لقد كانت الفتنة بما فيها الجحمل وصفين ، ومن ثم استشهاد الإمام علي كرم الله وجهه موقفا آخر حاسما في تاريخ أمتنا .

وكان واضح من النص الذي أورده ابن كثير في [البداية والنهاية ١١٩/٨] الفتنة هزيمة داخلية ، هزيمة وحدة الصف

(١) (أمره) أمر معاوية بن أبي سفيان ، (وأمر أمير المؤمنين) علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

الداخلي ، أتّجّحت فرقة ، وضياع جهود ، أوقفت انتشار الدّعوة الإسلامية لدّة ليست يسيرة .

الحرب الأهلية هدر لقوى وطاقات لم توضع في مجالها الصحيح ، لقد توقفت الفتوح ، عندما أصبح بأس المسلمين بينهم ، وتطاول عدوهم عليهم ، وجاء عام ٤١ هـ (عام الجماعة) ، فحققت دماء المسلمين ، واجتمعت الكلمة ، وبدأت الفتوح تستعيد عزّيمتها عام ٤٢ هـ بفتح عقبة بن نافع في الشمال الإفريقي .

والفتنة (الحرب الأهلية) تكرّرت أيام عبد الملك^(١) وحربه مع عبد الله بن الزبير ، وما كاد عبد الملك ينتهي من

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم : (٦٤٦ - ٨٦ = ٧٠٥) م : من أعلام الخلفاء ودهائهم ، نشأ في المدينة فقيهاً واسع العلم ، متبعاً ناسكاً ، انتقلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ فضبط أمورها وظهر بظاهر القوّة ، فكان جباراً على معاشريه ، قويّ الميّة ، وقتل في أيامه السّذّلانيين من الفارسية والرومّية إلى العريّة ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات ، وهو أول من صكَّ الدّنانير في الإسلام ، وأول من نقش بالعريّة على الدّرّاج ، ونقش خاتمه : « آمنت بالله خلصاً » ، [الأعلام ١٦٥/٤] .

حربه مع ابن الزبير حتى أسرع في توجيه جيشه إلى حرب الروم ، وبذلك أوقف تطاولهم وأنهاء ، هذا التطاول الذي ما كان لقوّة في دولة الروم وجيشهما ، لقد كان بسبب الخلافات الداخلية بين المسلمين أنفسهم ، حتى أدى عبد الملك أتاوة للروم ليأمن جانبيهم مؤقتاً .

وبعد انتهاء حرب ابن الزبير ، عادت الروم إلى حجمها الحقيقي ، فزماً أمام وحدة الصّفّ الدّاخليّ في دولة الإسلام ، فأوقف عبد الملك دفع الأموال إليهم ، وردهم على أعقابهم .

انتهت الفتنة ، وتوقفت الحرب الأهلية ، فوجّه عبد الملك هذه القوى إلى الفتوح ، هذه الفتوح الخالدة الباقيّة بسبب إنسانيتها وحضارتها ، ولكنها تأخرت زمناً غير يسير بسبب الحرب الأهلية .

☆ ☆ ☆

الحملات الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١ م) :

لن تتحدث عن ماهية الحركة الصليبية وبراعتها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويكتفي ببعض المقدمات وببعض النتائج .

في ١٩ آب (أغسطس) ١٠٧١ م كانت معركة (ملاذ كرد)^(١) ، المعركة الخامسة بين السلاجقة بقيادة ألب أرسلان ، وبين البيزنطيين بقيادة رومانس الرابع ، وحلت المعركة بالبيزنطيين ، ووقع الإمبراطور رومانس الرابع أسيراً .

وهذا يمثل «نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط الإسلام ، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين ، وبذلك صار على الغرب الأوروبي أن يقوم بدوره في هذا المضمار بدلأ من اعتقاده ، حتى ذلك الوقت ، على

(١) ملاذ كرد : Malazgirt . مدينة في شمال تركيا على مargins من بحيرة وان ، كانت تدعى قديماً (ماتريكت) .

الإمبراطورية البيزنطية ، وبعبارة أخرى ، فإنّ موقعة (ملاذ كرد) تبرّر - في نظر كثير من المؤرّخين - ما حدث سنة 1095 م من دعوة للحرب الصليبيّة في الغرب الأوروبي ، على أساس أنّ هذه الدّعوة إنّما جاءت ردّ فعل للكارثة التي حلّت بالدولة البيزنطية سنة 1071 م : ، فكانت دعوة البابا (أوربان الثاني) في تشرين الثاني (نوفمبر) 1095 م للحملة الصليبيّة الأولى خير أداة للشّارل لمعركة (ملاذ كرد) ، ولقد استطاعت هذه الحملة تأسيس إمارة الرّها ، وإمارة أنطاكية ، وملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس ، والجندول التّالي يوضح السقوط والاسترداد :

الإمارة أو المملكة	السقوط	الاسترداد
إمارة الرّها	1098 م	1144 م
إمارة أنطاكية	1098 م	1268 م
ملكة بيت المقدس	1099 م	1187 م
إمارة طرابلس	1109 م	1289 م

ومنذ عام ١٠٩٨ م تاريخ وصول الحملة الصليبية الأولى ، لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة ، وبعض هذه الجموع فاقت في كثرة أعدادها ، وفي أهمية ما حققته من نجاح الحملات الصليبية المألفة التي فازت بأرقام في التاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع ، أو الحملات ، لم تقنع أرقاماً تضفي عليها قسطاً من الأهمية في التاريخ^(١) .

أما الحملات الثاني التي فازت بأرقام عدديّة ميّزتها في التاريخ ، فقد اتجهت أربع نحو بلاد الشام ، وهي : الأولى والثانية والثالثة والسادسة ، واثنتان نحو مصر : وهما : الخامسة والسابعة ، وواحدة ضدّ القسطنطينيّة ، وهي : الرابعة ، وأخرى نزلت بشمالي إفريقيا ، وهي : الثامنة ، ولا يُعرف على وجه التحديد السبب في تمييز هذه الحملات بـأعطائهما أرقاماً

(١) الحركة الصليبية ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، ٨٨/١ ، وانظر :
- الجبهة الإسلاميّة في عصر الحروب الصليبيّة ، د . حامد غنيم أبو سعيد ،
دار الثقافة ، القاهرة .
- ماهيّة الحروب الصليبيّة ، د . قاسم عبد الله قاسم ، عالم المعرفة العدد ١٤٩
أيار (مايو) ١٩٩٠ م .

عدديّة دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن التّرّ في هذا التّمييز إنّها يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حقّقته من نجاح في الأراضي المقدّسة ، مثل الحملة الأولى ، أو ما كان لها من اتجاه خاص جديّد غير مألوف في غيرها من الحملات الصّليبيّة ، مثل الرابعة والخامسة ، أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب ، مثل الحملات الثالثة والسّادسة والسّابعة والثّامنة .

وعلى الرّغم مما كان يجري في قلب العالم الإسلامي يومئذ من انتقادات وخلافات سببها الخلاف بين أمراء السّلاجقة بعضهم مع بعض ، ورغبة الخلافة العباسية في استعادة سلطتها الزّمنية ، هيّا الله من يبدأ بنشاط وجذّ حروب التّحرير ، إنّه أتابك الموصل زنكي^(١) الذي استعاد إمارة الرّها ، وجاء من بعده ابنه

(١) الأتابك عاد الدين زنكي بن قسم الدولة الحاجب آق سنقر : ١٤١ هـ = ١١٤٦ م ، تصدّى للصّليبيّين وأجلّهم عن حلب وحاة وأخذ منهم حصن الأثارب ، وتوغل في ديار بكر ، واستعاد الرّها ، وبينما كان يحاصر قلعة جعبر قتل غيالة وذفن بصفين ، و (أتابك) لقب تركي يعني : أب أو مربي الأمراء .

نور الدين زنكي ، ومن بعده الناصر صلاح الدين الأيوبي ، فكانت (حطين) السبت ٤ قوز (يوليوز) ١١٨٧ م ، ومن ثم تحرير القدس الشريف يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ، الموافق ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧ م .

ويعترف المؤرخون الأوربيون بكرم الأخلاق والشهامة والتسامح التي أتسم بها المسلمون خلال قتالهم للصلبيين ، والتي لم يعرفها الغرب في يوم من الأيام .

ثم قامت دولة المماليك في مصر عام ١٢٥٠ م ، فبُشّرت في المسلمين روحًا جديدة ، وهيئات لهم طاقة جديدة ، ولم يكُن يُمضِ على قيام دولتهم سوى نيف وأربعون سنة ، إلا وبلاد الشام كافية محَرَّة من بقايا الصليبيين ، على يد قطُرْز وبيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون الذي أتمَ التحرير بفتح (عثليث) ^(١) في ١٤ آب (أغسطس) ١٢٩١ م ، وبذلك عادت البلاد كلها إلى أبنائها ، وдалت دولة الصليبيين بالشام ، الذين أزدَادُوا معرفتهم بالشرق وحضارته وعلومه ، وفروسيَّته

(١) عثليث أو عثليت : بلدة جنوب حيَا ، بينها وبين قيسارية .

وإنسانيته ، فكان هنا قناة رافدة لمعرفة الغرب بحضارتنا التي لمها عن قرب في الأندلس ، في قرطبة (جوهرة العالم) ، فكان عصر النهضة في الغرب .

- ٧ -

هولاكو وسقوط بغداد

[م ١٢٥٨ = ٦٥٦ هـ]

بدأت ميول المغول^(١) نحو المسيحية في مذهبها التسطوري^(٢) ز من خاقانهم كيورك ، وهم الذين ظلوا وثنيين إلى ما بعد

(١) يظهر أن الشعوب التي اخدرت من أصل منولي وتحدث بالغولية كانت تسمى نفسها دائماً باسم (التتر) ، ولكن قد حلّ هذا الاسم بعد عهد جنكيز خان في منغولية وأسية الوسطى اسم المغول (المغول) ، وهو الاسم الذي استعمله رسمياً جنكيز خان .

(٢) نسطور Nestorius [ت ٤٥١ م] ولد في قيصرية سوريّة ، وصل إلى منصب بطريركية القسطنطينيّة سنة ٤٢٨ م ، أنكر على مريم لقب (أم الله) ، فحرمه بجمع إفسس سنة ٤٣١ م ، أتباعه هم الناطرة .

- ١٠٩ -

منتصف القرن **الثالث عشر الميلادي** ، ومن هذا الميل جاءت فكرة تطوير الإسلام وال المسلمين من الشرق والغرب ، فبدأت الاتصالات بين المغول وبين رومية قبيل منتصف القرن **الثالث عشر** ، وأرسل البابا **أنوسنت الرابع** مبعوثاً من **الفرانسيسكان** اسمه **جنادي بلانسو كاربينس John de Plano Carpini** ^(١) لدعوته إلى **المسيحية** ، ولكن الخاقان اشترط لإتمام تلك الخطوة دخول **البابوية** وجميع ملوك وأمراء الغرب الأوروبي تحت سيادة **المغول** .

ولم تكن تلك السفارة هي الوحيدة من نوعها التي أرسلها **البابا أنوسنت الرابع** إلى المغول ، بل أرسل سفارة ثانية إلى **(بيجوا)** زعيم **مغول القوقاز** .

ولم تلبث تلك الاتصالات التي بدأت بين المغول والبابوية ، في الوقت الذي كان **لويس التاسع** يعده العدة لحملته الصليبية

(١) **قراقورم** : عاصمة المغول ، وموقعها في أراضي منغولية حالياً ، شمال شرق **الصين** ، وهي غير المنطقة الجبلية العالية المعروفة حالياً باسم **(قره قورم)** شالي كشمير بين باكستان والصين .

ضد المسلمين ، أن أدى إلى نوع من المفاوضات بين المغول والصلبيين بقصد تطويق المسلمين في الشرق الأدنى ، ذلك أنَّ لويس التاسع لم يكُن يصل إلى قبرس في طريقه إلى دمياط ، حتى وفَسَدَت على نيقوسيا في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٢٤٨ م سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل - اسمها داود ومرقص - قالا إنَّها موفدان من قبل جفطاي خان نائب الخاقان الأعظم في القوقاز وفارس ، وكان الغرض من تلك السفارة عقد تحالف عسكري بين الصليبيين والمغول ضدَّ الأيوبيين في الشام من ناحية والخلافة العباسية في بغداد من ناحية أخرى .

ورَدَّ لويس على المغول بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرهبان الدومينikan إلى المغول ، فقادرت السفارة قبرس في كانون الثاني (يناير) ١٢٤٩ م مُحملة بالهدايا من الملك الفرنسي - لويس التاسع - وقصدت جفطاي خان في أذربيجان ، وسلكت تلك السفارة طريق أنطاكية والموصل ، على أنَّه يبدو أنَّ تلك السفارة لم تحقق نتيجة حاسمة في موضوع

التحالف ، لأنَّ جفطساي خان أرسل مبعوثيًّا لويـس إلى قراقوـم ، مقر خـان المـغول العـظيم في جـوف آـسـيـة ، في الـوقـت الـذـي كانـ الخـاقـانـ كـيـوـكـ قدـ تـوـيـ فيـ أـوـاـئـلـ نـيـسانـ (ـ إـبـرـيـلـ) سـنـةـ 1248ـ مـ ، وـلـمـ تـشـرـ هـذـهـ السـفـارـةـ ، الـأـمـرـ الـذـي جـعـلـ لـوـيـسـ التـاسـعـ يـوـجـهـ نـظـرـهـ إـلـىـ كـتـلـةـ أـخـرـىـ مـنـ المـغـولـ ، هـمـ مـغـولـ وـسـطـ آـسـيـةـ .

وـكـانـ ذـلـكـ سـنـةـ 1253ـ مـ ، عـنـدـمـاـ أـرـسـلـ لـوـيـسـ التـاسـعـ سـفـارـةـ إـلـىـ سـرـتـاقـ بـنـ بـاطـوـ . وـكـانـ مـسـيـحـيـاـ . لـطـلـبـ التـحـالـفـ ضـدـ الـمـسـلـمـينـ ، وـكـانـ السـفـارـةـ بـرـئـاسـةـ أـحـدـ الرـهـبـانـ الـفـرـانـسـيـسـكـانـ وـاسـمـهـ روـبـروـكـ ، وـوـصـلـ روـبـروـكـ إـلـىـ سـرـتـاقـ ، وـعـنـدـئـلـ أـخـبـرـهـ الـأـخـيـرـ أـنـهـ لـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـقـطـعـ فـيـ الـمـوـضـوـعـ بـرـأـيـ حـاسـمـ دـوـنـ إـذـنـ مـنـ وـالـدـهـ بـاـطـوـخـانـ ، وـهـكـذـاـ يـمـتـ سـفـارـةـ لـوـيـسـ وـجـهـاـ شـطـرـ بـاـطـوـخـانـ الـذـي حـوـلـ السـفـارـةـ بـدـورـهـ إـلـىـ مـنـكـوـ ، خـاقـانـ المـغـولـ الـعـظـيمـ ، وـيـبـدـوـ أـنـ رـدـ مـنـكـوـخـانـ عـلـىـ رـسـالـةـ لـوـيـسـ التـاسـعـ جـاءـ غـيرـ مـقـبـولـ ، إـذـ طـلـبـ خـاقـانـ المـغـولـ مـنـ مـلـكـ فـرـنـسـةـ أـنـ يـعـلـنـ تـبـعـيـتـهـ لـهـ .

وأخبر روبروك برسالة أرسلها إلى لويس الذي عاد إلى فرنسة أن المغول يتأنبون لغزو العراق ، والقضاء على الخلافة العباسية ، ولهذا السبب حرص الصليبيون على دوام الاتصال بالمغول^(١) .

وأعلن منكوحان رسميًا أنه كُف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية .

وفعلاً .. أحاط المغول (الستار) ببغداد ، دار الخلافة العباسية ، وأقنع الوزير الخائن ابن العلقمي الخليفة المستعصم بالله المثول بين يدي هولاكو ليقنعه بالصالحة ، على أن يكون نصف خراج العراق لهم ، ونصفه الآخر للخليفة ، فخرج الخليفة في سبع مئة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل هولاكو ، حُجب القادمون مع الخليفة عنه ، إلا سبعة عشر نفساً ، فسار الخليفة بهؤلاء ، وأنزل الباقون عن خيولهم ، فنهيت ، وقتلوا عن آخرهم .

(١) الحركة الصليبية ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٠٩٨/٢ - ١١٠٢ .

وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو ، فسألته عن أشياء كثيرة ، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصیر السَّدِّين الطُّوسِي ، والوزير ابن العلقمي وغيرها ، وال الخليفة كانه أسير ييد أتباع هولاكو ، فأحضر المستعصم بالله من دار الخلافة أشياء كثيرة ، من الذهب والخلي والمجوهرات ، والأشياء النفيسة .. وأشار الطُّوسِي وابن العلقمي على هولاكو أن لا يصالح الخليفة ، وحسنَا له قتل الخليفة ، فأمر بقتله ، فقتل^(١) .

ودخل هولاكو بغداد مع جنده التتار ، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والشيوخ والكهول والشُّبُّان ، واختبأ كثير من الناس في الآبار والأقنية الواسعة ، وكنوا كذلك أيامًا لا يحررون على الظهور .

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقون عليهم الأبواب ، فيفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهرسون منهم إلى أعلى الأماكن ، فيقتلوهم بالأسطحه ، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة ،

(١) البداية والنهاية ٢٠٠/١٣ .

وكذلك في المساجد والجوامع والرُّبُط ، واستمر القتل أربعين يوماً^(١) .

وانقضت دولة بنى العباس .

وبغداد خراب خاوية على عروشها ، القتلى في الطرقات أكاداساً أكاداساً ، قد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم ، وأنتشت من جيفهم البلد ، فتغير الماء ، وانتشر الوباء الشديد ، حتى تعدى المنطقة ، وسرى في الماء إلى بلاد الشام .

ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالأقنية والمقابر كأنهم الموتى ، وقد أنكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه ، وحصد الوباء الكثير منهم ، وتلاحقوا بين سبقهم من القتلى .

ويمثل عام ٦٥٦هـ = ١٢٥٨ م زوال الخلافة العباسية ، التي عاش في كنفها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون .

(١) قدر عدد القتلى بثمان مائة ألف ، وقيل ألف ألف (مليون) وثمان مائة ألف ، وقيل القتلى ألفي ألف نفس [البداية والنهاية ٢٢/٢٠٠] .

ولقد واصل المغول زحفهم إلى بلاد الشام ، فخرج الملك المظفر قطز بجيشه المملوكي من مصر للاقتال في عين جالوت^(١) ، وتحطيم آمالهم في الدخول إلى مصر .

وكان اللقاء في عين جالوت يوم الجمعة الخامسة والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ ، وهزم قطز بن دايه الصادق : « والإسلاماه » جيش المغول الذي كان يامرة كتبانوين .

توفي هولاكو سنة ١٢٦٥ م ، فورثه ابنه أباقة الذي دام حكمه حتى سنة ١٢٨٢ م ، ليخلفه ابنه أرغون حتى سنة ١٢٩٢ م ، وفي عهده عُوْمِلَ النَّاسَاطِرَة معاملة حسنة في شمال غربي إيران والعراق ، وبنى أسقفهم كنيسة (مراغة) ، فهو لا يزال حكمه حتى سنة ١٢٩٥ م - ١٢٠٤ م - وهو من أحفاد هولاكو - ويرافقه عهد ذهبي استمر في عهد خليفة أولجايتو : ١٢٠٤ - ١٢١٦ م .

واعتنق غازان الإسلام .

(١) عين جالوت : في فلسطين ، في سهل مرج عامر قرب مدينة يسان .

مَصْرَعُ غَرْنَاطَةَ

١٢ ربيع الأول ٨٩٧ هـ = ٢ كانون

الثاني ١٤٩٢ م

إنَّ دفاعَ أهلِ غَرْنَاطَةَ عنْ مَدِينَتِهِمْ ، يَقْدُمُ مِنْ أَرْوَعِ
مَا عُرِفَ فِي تَارِيَخِ الْمَدِينَاتِ الْمُحَاصَرَةِ ، بِمَا سُجِّلُوا مِنْ ضَرُوبِ رَائِعَةٍ
مِنَ الْإِقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ ، وَالرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْعَالِيَّةِ .

حَاصِرٌ فِرْدِيْنَانْدُ وَإِيزَابِيلَةِ غَرْنَاطَةَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ، وَاشْتَدَّ
الْجُوعُ وَالْخَرْمَانُ وَالْمَرْضُ ، فَاسْتَسْلَمَتِ الْمَدِينَةُ بِشَرْوَطٍ بَلْغَتْ
سَبْعَةَ وَسْتَيْنَ بَنْدًا ، أَهْمَّهَا : « تَأْمِينُ الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ فِي النَّفْسِ
وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ ، وَإِبْقَاءُ النَّاسِ فِي أَمَانَتِهِمْ وَدُورِهِمْ وَرِبَاعِهِمْ
وَعَقَارِهِمْ ، وَإِقْامَةُ شَرِيعَتِهِمْ عَلَى مَا كَانَتْ ، وَلَا يُحَكَّمُ عَلَى أَحَدٍ
مِنْهُمْ إِلَّا بِشَرِيعَتِهِمْ ، وَأَنْ تَبْقَى الْمَسَاجِدُ كَمَا كَانَتْ ، وَالْأَوْقَافُ
كَذَلِكَ ، وَأَنْ لَا يَدْخُلَ النَّصَارَى دَارَ مُسْلِمٍ ، وَلَا يَغْصِبُوا
أَحَدًا .. » .

ولكن الشُّروط تقضت جميعها بحقد ولؤم ، واستولى الإسبان على غَرْنَاطَة ، آخر الحواضر الإسلامية في الأندلس ، وخفق علم الإسبان ظافراً فوق صرح المسلمين المغلوبين ، وقال الناس : انتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس ، وطويت تلك الصفحة المجيدة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، بما فيها من أداب وعلوم وفنون .. وكل ذلك التُّراث الشَّامخ في طريقه إلى الفناء والنُّسيان .

وأشرف أبو عبد الله الصَّغير على غَرْنَاطَة فأجهش بالبكاء على هاتيك الرُّبُوع العزيزة ، التي شهدت مواطن عَزَّة الإسلام وسلطانه وحضارته السَّامقة ، فصاحت به أمُّه عائشة الحَرَّة : « أجل ، فلتبكِ كالنِّساء ملِكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرِّجال » ، وتعرف إسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر باسم مؤثر : « زفة العربي الأخيرة » .

وعلى الرَّغم من حاكم التُّفْتِيشِ الَّتِي تشكَّلت بِرَسُومِ بَابُويِّ في شرِينِ الشَّانِي ١٤٧٨ م ، والَّتِي هي وصمة عار في جبين العصور الوسطى في أوروبا ، والَّتِي هدفت إلى تنصير المسلمين في الأندلس

بأشدّ وسائل العنف ، فيان للأندلس اليوم ، وبعد مضي
خمس مئة عام ، حكم ذاتي في دائرة الدولة الإسبانية ، لها
حكومة محلية تدير شؤونها ، وعلم ونشيد قومي ، وشباب
أندلسي مسلم يقوم بالدعوة لنشر الإسلام ، الدين العالمي
الإنساني ، الذي لا ينكر الديانات السابقة ، ولا الأنبياء
السابقين ، توج نشاطهم بالاعتراف بالدين الإسلامي ديانة
رسمية إلى جانب المسيحية واليهودية ، وذلك في صيف
سنة ١٩٨٩ م .

رئيس الجماعة الإسلامية أستاذ جامعي اسمه عبد الرحمن
مدینا ، أقام في إشبيلية حفل عام ١٩٨٢ م ، موضوعه : شعر
الملك الإشبيلي المعتقد بن عباد ، افتتحه بآيات من القرآن
الكريم ، ودوى المكان بالتصفيق ، وهذا يدل على تعاطف
الجمهور ، وفيهم كثيرون من المسيحيين مع المسلمين الجدد ،
أحفاد طارق وموسى وعبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن
الناصر ^(١) .

(١) الشرق الأوسط : ٤١٦ ، الجمعة ١٩٩٠/٥/٢٥ م .

وقدّم عبد الرحمن مدينا شعر ابن عباد بقوله : أقدم لكم
شِعراً رِيقاً لِلْكَ عَظِيمٌ مِنْ مُلُوكِ إِشْبِيلِيَّةٍ ، الَّتِي عَرَفَتْ فِي عَصْرِهِ
الْخَضَارَةِ وَالْازْدَهَارِ وَالتَّفَتُّحِ وَالتَّسَامِحِ الْدِينِيِّ ، وَلَكُنِي مُتَأْسِفٌ
لِتَقْدِيمِ هَذِهِ الْقَصَائِدِ بِالْإِسْبَانِيَّةِ إِذَا كَانَ الْمُفْرُوضُ أَنْ تَقْدِيمَ بِالْلُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ ، لِغَةِ آبَائِكُمْ وَأَجَدَادِكُمْ ، فَكَانَ تَقْدِيمِي مُؤْثِراً قَوْبِلَ
بِالْاسْتِحْسَانِ وَالتَّصْفِيقِ .

وَأَدَى الْمُسْلِمُونَ صَلَةَ الْعَصْرِ ، الَّتِي أُقِيمَتْ وَسْطَ حَشُودِ
الْمُحَاضِرِينَ ، وَقَدْ احْتَرَمُوا شَعُورَ هُؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّمَتِ
وَالْهَدْوَءِ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ أُلْقِيَتْ كَلْمَاتٍ حَوْلَ تَارِيخِ الْخَضَارَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ،
وَخَتَمَ الْخَفْلَ بِالنُّشِيدِ الْقَوْمِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ .

فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَحْشِيَّةِ مُحَاكِمِ التَّفْتِيشِ وَسُجْلَاتِهَا الَّتِي تَفِيَضُ
بِالْأَوَانِ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيِّ وَالتَّشْرِيدِ الْمُحْزَنِ ، وَتَرْخُرُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ
بِالْإِبَاءِ وَالْبَسَالَةِ وَالصَّبَرِ وَالْجَلَدِ ، تَخْلُقُ بِهَا شَعْبٌ مِنْ أَنْبِيلِ
الشُّعُوبِ ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَسْفِ وَرُوعِ وَرَهْبَةِ هَذِهِ الْمُحَاكِمِ

وبطشها ، بقيت بقية قليلة في جنوب مملكة غرناطة ، لها مسجدها الصغير حتى عام 1769 م ، تحافظ ما استطاعت في قراره نفوسها على تراثها الإسلامي ، وهي اليوم تعود علينا ، مع تأسيس جامعة تعلم العربية والإسلام ، وتفخر بتأصيلها ، وتعتز بشجرة نسبها المتصلة بالعرب المسلمين فاتحبي الأندلس وباني مجدها الحضاري .

☆ ☆ ☆

- ٩ -

وادي المخازن

معركة الملوك الثلاثة ، معركة القصر الكبير

[الاثنين ٢٠ جمادى الشانية ٩٨٦ هـ ، ٤ آب ١٥٧٨ م]

سُرِّتْ أُورَبَة بِرْعَائِيَةِ الْفَسَاتِيْكَانْ جِيشاً ضَمَّ البرتغالي والإسباني والألماني والإيطالي .. بقيادة ملك البرتغال الشاب (دون سبستيان^(١)) ، ملك أعظم إمبراطورية على وجه الأرض

(١) سبق ذلك مفاوضات جادة بين البرتغال والمحبنة ، ووصلت رسائل

بلا منازع آنذاك ، ونزل الأرض المغربية التي كان يحكمها الأشراف السعديون ، بزعامة أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ، وأخيه أبي العباس أحمد المنصور الذهبي .
(وادي المخان) معركة بقاء الإسلام في الشمال الإفريقي أو زواله .

لقد أراد سبستيان بحقد وتعصُّب إعلاء شأنه بين ملوك أوربة ، فظهر يحمل في يديه كتابه المقدس ، ويحمل في يسراه الشاح والصوابجان ، ليتَّوَجَ نفسه إمبراطوراً على المغرب وإفريقيَّة ، إِنَّه حلم امْتِلَاكِ الدُّنْيَا بعد الكشوف الجغرافية ، واحتلال كل أراضي الإسلام ، والقضاء عليه بالقضاء على أبنائه أينما وجدوا .

معركة دامت أربع ساعات وثلث السَّاعة ، مئتان وستون دقيقة فقط قررت مصير المغرب وإفريقيَّة والإسلام في كل أرجاء القارة ، بل وفي المشرق أيضاً .

= البرتغال إلى الحشة طالبة الجنود والمؤن لمساعدة البرتغاليين في كسر شوكة السلطان في القاهرة - قانصوه الغوري - وتحطيم مدينة مكّة ، ومن الخطط تحويل بحر النيل عن مصر كي تحرم مصر من خصوبة أرضها .

لقد كانت آلام المسلمين من سقوط غرناطة وضياع الأندلس جرحاً لم تندمل ، ولم تنسَ بعد ، ووحشية حاكم التُّفتيش وصور جرائهما التي ارتكبت مجازال ماثلة في الأذهان ، والمشاركة الشعبية القوية الفعالة ، مع الخطأ الحكمة المرسومة بدقة ، مع القدوة والأسوة المثالية .. كانت أهم عوامل النصر الحاسم ، حتى شبّهت معركة وادي المخازن بمعركة بدر الكبيرة ، وذلك دليل أهميتها ، وما تُنجز عنها من تفاصيل ، حتى بدأ التفكير والتخطيط على مستوى أوربية بترك سياسة الحديد والنار ، وبهذه (حرب الكلمة) ، الغزو الفكري الثقافي ، بعد إخفاق الغزو العسكري في المشرق العربي وفي مغربه .

خرج المغرب المسلم متصرّاً ، وبعزيمة جديدة ، وخرجت البرتغال بهزيمة قاسمة .

ومن يذكر أنَّ السلطان المغربي عبد الملك المعتصم بالله ، على الرغم من خروجه بنفسه لردة الخطر ، كان يدافع سكرات الموت ، وحينما أطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كلّيّها ، إذاناً بيده المعركة ، عاد إلى حفته ، وما هي إلّا دقائق

حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأطبق أجنفاته وهو موقن بالنصر الذي وعد الله به عباده الصادقين المجاهدين ، وأمر هذا الرجل عجيب في الحزم والشجاعة ، لقد مات وهو واسع سباته على فه مشيراً أن يكتوا الأمر حتى يتم النصر ، ولا يضطربوا ، وهذا ما كان ، فلم يطلع على وفاته إلا حاجبه رضوان ، وأخوه أحمد المنصور ، وصار حاجبه يقول للجند : السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا ، وفلاناً أن يلزم الرأية ، وفلاناً يتقدّم ، وفلاناً يتأخّر^(١) .

أمر عجيب ، وسر عظيم ، فقد هلك في (وادي الخانن) ثلاثة ملوك : عبد الملك المعتصم بالله ، وسبتيان ، و محمد التوكل على الله (الملوخ) الذي قاتل مع سبتيان ضدّ عمه عبد الملك المعتصم بالله .

وكانت المفاجأة أنَّ ملكاً ميتاً غلب ملك البرتغال الشاب ، المتوفّد حماسة في سويعات ، حتى ظنَّ البرتغاليُّون ومن معهم من الجندي الأوربيين أنَّ ذلك الأمر كان من فعل السُّحر .

وظلَّ الإسلام معاذ قويًا .

(١) الاستقصا ٨٠٪ .

الاستعمار

(الاستعمار اصطلاحاً)

تنافست الدول الأوروبية في استعمار العالم الإسلامي ، فاحتلت بريطانية : ماليزية وشبه القارة الهندية - حيث الدولة المغولية الإسلامية - وسواحل الخليج العربي ، والجنوب العربي ، ومصر والسودان ونيجيرية ، والعراق وشرق الأردن وفلسطين ..

واستعمرت فرنسة : مالي وتشاد والنiger والسنغال ومدغشقر وموريتانية والمغرب والجزائر وتونس وجيبوتي وسورية ولبنان ..

واستعمرت إيطالية : ليبيا وجزءاً من الصومال ..

واستعمرت روسية : سيرية وتركستان الغربية وحوض الفولغا وشبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز ..

واستعمرت إسبانيا : الريف المراكشي ، والصحراء المغربية
وإقليم مورو في الفلبين ..

واستعمرت هولندا : إندونيسية ..

وعلى الرغم مما رافق هذا (الاستعمار) من تبشير أنفق مليارات الدولارات لخارية الإسلام ، ومحو اللغة العربية ، عادت الأصالة إلى ربوع البلاد بعد الاستقلال ، فالإسلام دين الشعب ، واللغة العربية لغة مقدسة ، إنها لغة العبادة ، لقد عقد مؤتمر اللغة العربية العالمي في كراتشي بتاريخ ٢٩/٧/١٤٠٨ هـ الموافق ١٧/٣/١٩٨٨ م تحت شعار : (إنما أنزلناه قرآنًا عَرَبِيًّا لَقُلُّكُمْ تَعْقِلُونَ) ، [يوست : ٢٠٢] ، شارك فيه ممثلون عن تسعة عشرة دولة ، وعدد من العلماء المهمين باللغة العربية ، وتضمنت أعماله خمسة محاور هي :

١ - دور اللغة العربية بوصفها أداة ربط بين الدول الإسلامية .

٢ - التنسيق والتعاون في تعلم اللغة العربية بالدول الإسلامية .

- ٣ - إسهام غير العرب في نشر اللغة العربية .
- ٤ - وسائل وتقنيات مختلفة في تعلم اللغة العربية .
- ٥ - دور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية بين المسلمين^(١) .

الملسون واقع موجود فعلاً ، ولم ينجز لواحسن التعاون ، قد يضعفون ، ولكنهم لن ينتهيوا ، لأن إسلامهم محفوظ مصون ، والوعي والانبعاث جلي من المحيط الهادئ وحتى شواطئ المحيط الأطلسي ، ومن إفريقيا الخضراء جنوب خط الاستواء إلى سiberia .

وببدأ العملاق المقيّد يتسلق لينطلق بوعي وبرلا عنف من قيده ، عارفاً ذاته ، مدركاً ببر عزته وبقائه ، ومؤهلاته لقيادة العالم نحو إنسانيته الحقة ، وطهانيتها الروحية والاجتماعية .

هذا هو قدر أمة الإسلام ومهمتها ، لتكون شاهدة على الناس ، ولتكون الرسول عليهم شهيداً .

(١) حاضر العالم الإسلامي وقضايا المصاهرة : ١١٢/١ ، د . جمیل عبد الله محمد المصري ، دار أم القرى ، ط ١٤٠٧٢ هـ = ١٩٨١ م .

خاتمة القرن الحادى والعشرون قرن الإسلام

أثبتت واقع المدنية الغربية أنَّ التقدُّم العلميُّ وحده لا يوجد
لِلإِنْسَانِ السَّعِيدِ ، فَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَرَافِقْهُ تَرْبِيَّةٌ وَقِيمٌ روحيَّةٌ يَوْجِدُ
لِلإِنْسَانِ الْقُلْقَ الْخَاوِيِّ .. وَهَا هِيَ السُّوِيدُ أَكْثَرُ الْبَلَادِ تَقدِّمَا
عَلَيْهَا أَكْثَرُهَا تَنَاوِلًا لِلْمَهَدَّثَاتِ وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَأَكْثَرُهَا حَوَادِثَ
الْانْتِهَارِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُنْطَقِ خَلْقُ هَذَا الْمَنَابِخِ ، فَالْبَشَرِيَّةُ خَلَقَتْ
لَتَسْعَدْ وَتَهْنَأْ ، وَتَعِيشْ فِي طَمَانِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ فِي
الْدُّنْيَا أَنْ يَفْسُدْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْأُلْيَى لَنْ يَكْرَرْهَا صَاحِبُهَا ثَانِيَةً عَلَى
هَذِهِ الْأَرْضِ .

وَالْعُمَرُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ يَعِيشَهُ الْإِنْسَانُ مَعْذِبًا قَلْقًا .

وَلَا تُحِبِّيَّدُ لِلْقِيمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي الْمَجَمِعِ الْمُتَوَازِنِ ، وَلَا عِبَادَةُ
لِوَسَائِلِ الْإِنْتَاجِ .

وهذا التوازن فيه سلامة المجتمع وطمأننته ، يتحققه الإسلام الجوهر والمضمون ، ويمضي لا شك فيه أن هناك عوائق في وجه النهر المتندفع ، والذي لا بد أن يبلغ المجرى الذي جف ليلوئه ، ومن هذه العوائق :

١- الخلافات المذهبية بين المسلمين أنفسهم ، سلفي وصوفي ، سني وشيعي ، ولو اجتمع الخلفاء الراشدون ، ولو اجتمع الأئمة الفقهاء أيضاً ، لبُنوا إسلاماً واحداً ، هو الذي أرسىه رسول الله ﷺ ، وساروا بهم على هديه وتبليغه الناس كافية ، مصداقاً لقوله تعالى : **﴿الَّيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِينًا﴾** [المائدة : ٢٥] .

جاء في (قواعد التحديد من فنون مصطلح الحديث)^(١) : بحث : بيان معرفة الحق بالدليل :

(١) للعلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، طبع : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، ص ٢٥٥ وما بعدها .

- « الحق يتضح بالأدلة» .

- وقال الإمام مفتى مكّة الشّيخ محمد عبد العظيم بن ملا فروخ في رسالته : (القول السّديد في بعض مسائل الاجتهاد والتّقليد) ، في الفصل الأوّل : « أعلم أنّه لم يكُف الله تعالى أحداً من عباده أن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً أو حنبلياً ، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث به محمد ﷺ ، والعمل بشرعيته ، غير أنّ العمل بهما متوقف على الوقوف عليها ، والوقوف عليها له طرق ، فما كان منها ممّا يشترك فيه العامة وأهل النظر ، كالعلم بفرضية الصّلاة والزّكاة والحج والصوم والوضوء إجمالاً ، وكالعلم بحرمة الزّنا والخمر واللّواطمة وقتل النفس ، ونحو ذلك مما علم من الدين بالضرورة ، فذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد ، ومذهب معين ، بل كلّ مسلم عليه اعتقاد ذلك ، يجب عليه ، فمن كان في العصر الأوّل فلا يخفى وضوح ذلك في حقّه ، ومن كان في الأعصار المتأخرة ، فلوصول ذلك إلى عمله ضرورة من الإجماع والتّواتر والآيات والسنّن المستفيضة المترّحة بذلك في حقّ من وصلت

إليه ، وأما مَا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِضَرْبِ مِنَ النُّظُرِ وَالْإِسْتِدَالِ ، فَنَ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ بِتَوْفِيرِ أَنْتَهُ ، وَجَبَ عَلَيْهِ فَعْلُهُ ، كَالْأَئِمَّةِ الْمُجَتَهِدِينَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْرَةٌ عَلَيْهِ وَجَبَ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ مَرْشِدٍ ، إِلَى مَا كَلَّفَ بِهِ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ النُّظُرِ وَالْإِجْتِهَادِ وَالْعِدْلَةِ ، وَسَقَطَ عَنِ الْعَاجِزِ تَكْلِيفُهُ فِي الْبَحْثِ وَالنُّظُرِ لِعَجْزِهِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَا يَكُلُّ اللَّهُ تَقْسِيْمًا إِلَّا وَسَعَهَا﴾ ، [البقرة : ٢٨٦/٢] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، [الْمُحَمَّد : ٤٢/١٦] ، وَهِيَ الْأَصْلُ فِي اعْتِقَادِ التَّقْلِيدِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمُحَقِّقُ الْكَالِ بْنُ الْهَمَّامَ فِي التَّحْرِيرِ .

ـ «إِنَّ الْحَقَّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ ، اعْرِفْ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ» .

ـ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حُنْيَفَةَ : «هَذَا رَأِيِّي ، فَنَ جَاءَ بِخِيرٍ مِنْهُ قَبْلَتِهِ» .

ـ «الْحَقُّ يَتَضَعَّ بِالْأَدْلَةِ ، وَالشُّهُورُ تَشْتَهِرُ بِالْأَهِلَّةِ» .

ـ «لَا يَصْحُّ لِأَمْرٍ إِلَّا مُوافِقَةُ الْحَقِّ ، وَلَا يَلْزَمُ النَّاسَ

طاعة أحد لأجل أنه عالم أو إمام مذهب ، وإنما يلزم الناس
قبول الحق من جاء به على الإطلاق ونبذ الباطل من جاء به
بالتَّفَاقْ » .

﴿ إِنَّ الظُّنُنَ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ ، [النُّجُمُ : ٢٨/٥٢] .

﴿ فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضُّلُلُ ؟ فَإِنَّى تَضَرَّفُونَ ？ ﴾ ،

[يوئس : ٢٢/١٠] .

☆ ☆ ☆

٢ - سلوك الكثير من المسلمين غير اللائق في ديار الغرب ،
ولو رأى الغربيون من المسلمين الذين يؤمنون الغرب مارأه
الإفريقي والآسيوي من التاجر المسلم ، الداعية بسلوكه وأخلاقه
ومعاملته لاعتنقت الإسلام أعداداً أكبر بـالأسوة والقدوة والعرفة
والطهارة ، واللطف والأمانة ، وأسكتوا العديد من وسائل
الإعلام المعادية للإسلام وأهله .

٣ - غلو بعض المسلمين المتطرفين ، وتقديم صورة مشوهة
من حيث التطبيق ، مع جمود تحقق منذ أن أصبح الصوفي راهباً

لا ساعياً مزكًّا ، والفقير جامداً لا يجتهدأ باحثاً ، والعالم قاضياً
فظاً ، لا طيباً معالجاً مداوياً .

الداعية غير الحكيم ، منفر لا جاذب ، وكثرة التشدد أو
بالمقابل كثرة البدع حيث كثرة الشوائب ، مع جمود العالم
وضياع الأتباع .. عوامل سلبية محبطة .

٤ - عرض الإسلام من خلال قضايا فقهية لا تهمُّ مجتمع
اليوم ، فهو بعيد كلَّ البُعد عنها فلِم يشغل بها ؟ وهذا يدلُّ على
عدم فهم واقع حياة النَّاس ، والدليل عرض الإسلام الواقعي
العقلاني دون تشويه في الجوهر والمقاصد ، والعودة إلى سيرة
المصطفى المختار عليه السلام ، كيف بدأ ؟ وبماذا اهتمَّ أولاً ؟ وتفهمُ
سيرته في بناء الفرد والمجتمع في مكَّة .

مع الفصل في العرض بين ما هو إسلام (مبدأ ، وعقيدة ،
ومنهج) ، وبين ما هو تاريخ ، فلا يقاس المبدأ على الرجال ،
بل يقاس الرجال على المبدأ .

٥ - الاستشراق وجهوده - ولا أعم - وما وجّهه من شبّهات
وافتراضات وإفك حول الإسلام وال المسلمين .

وترُججُ لمجاهد الاستشراق مؤسّسات رسميّة ، إمكاناتها
كبيرة ، وباعها طويلا ، جاعلة الناس أمام (عدوٌ موهوم)
قادم ، هو الإسلام .

٦ - ويضع الكهنوت الغربي الإسلام - عن قصدٍ وغلوٍ .
أمام مرأة مقعرة تارة ، ومحبّة تارة أخرى ، فنّكة الجمال تجاه
هذا الوضع تبدو مشوّهة يُزهد بها ، وهذا مالمسه عدد من
المنصفين ، نذكر منهم (نيتشه) الذي قال عنهم : « لا يخطئون
فقط في كل جملة يقولونها ، بل يكذّبون ، أي إنّهم لم يعودوا
أحراراً في أن يكذّبوا ببراءة أو بسبب الجهل » ، (عدو المسيح ،
المقطع ٣٨) .

وأنا ماري شيل زعيمة الاستشراق الألماني اليوم ، التي قالت في
تقديم كتاب (الإسلام كبديل) : « الإسلام مثل غطّي لتلك
التّأوّيلات الظّالمة المشوّهة » .

والأمير شارلز - ولي عهد بريطانيا - « إن حكنا في الغرب على الإسلام قد شوّهه اتخاذ موقف الغلو ، باعتبار أن ذلك قاعدة طبيعية لإصدار الحكم ، وإن هذا يعد خطأ كبيرا » ^(١) .

٧ - المعركة المفتعلة بين العربية والإسلام ، والتي تضيّع الجهد والأوقات دون طائل أو فائدة .

منْ صانع أمجاد العربية ؟
ومنْ كاتب تاريخها المجيد الذي تفخر به ؟
بل منْ ناشر العربية وبناني حضارتها ؟
وكم نعجب ونَسْرُ عندما نسمع وزير خارجية الشيشان ينطق بالعربية الفصحى كواحد من أبناء أمّة العرب !؟
ورئيس وزراء البوسنة الدكتور حارث سيلادتش يقول للمسذيع

(١) صحيفة (تشرين) العدد ٦١٨٠ ، الاثنين ١٩٩٥/٣/١٢ م ، وتصريحة هذا ، قاله خلال زيارته للقاهرة ، وبعد مقابلة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية .

العربي في إذاعة لندن : تكلم العريّة الفصحي كي أستوعب
ما تقول وأفهم ما ت يريد .

وكلُّ مسلم - غير عربي - في العالم مع قضايا الأُمّة العريّة
بالفطرة ، والشّيخ الدّاعية (الجنوبي إفريقي) أحمد ديدات
هُدُّد بالقتل من قِبَل جهات معادية لأُمّتنا العريّة ، فقال :
أهلاً وسهلاً بالشهادة ، إنَّ موقفي جزء من عقيدتي ، وأنا
لأساوم على عقيدتي .

لقد كانت العروبة في وادٍ غير ذي زرع ، فاصبحت في
شواطئ الأطلسي ، وما وراء النّهر ، وفي حوض النّيجر
وسمرقند وبخارى وكاشغر ..

سعد العرب بالإسلام عقيدة ودينا .

وسعد الإسلام بالعرب حملة فاتحين أولين .

وأثبتت التّاريخ - بيقين - أنَّ العرب بلا إسلام كالهاربة التي
فقدت غطاءها الصّدفي ، وكما يقولون : إنَّ الهاربة التي تفقد

غطاءها الصّدفي تصبح عرضة لأن تُدمر ، وتفقد بالتسالي وجودها إن اعترضها خصومها .

☆ ☆ ☆

إن أحسن انتشار الإسلام متوافرة فيه ، تجعله كالرياضي الرشيق الذي يلعب (جمبازاً) بين معوقين ، منها :

١ - متسانة أصوله التي تخاطب العقل ، وتجعله فيصلأ في المحاكمة ، وفي القبول أو الرّفض .

٢ - بлагة القول وحسن البيان ، مع الحوار باليقى هي أحسن .

٣ - شعور الناس أن خطاب القرآن الكريم موجه إليهم منها كانت قوميتهم ، يقول بسمارك ^(١) : « إني تدبّرت وتأمّلت ودققت الكتب السماوية المنزلة التي يُسَدِّعُ أنْهَا واردة من

(١) بسمارك Bismarck (١٨١٥ - ١٨٩٨ م) من مشاهير السياسيين الألمان ، حقق الوحدة الألمانية ، وجعل ألمانيا في مقدمة الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر الميلادي ، حتى قيل : « أوربة بسمارك ، وعصر بسمارك » .

اللأهوت ، فما وجدت لما فيها من التّعرِيف ما أنا طالبه من الحكمة ، وإنَّ تلك القوانين ليست بجحث تؤمن السُّعادة للبشرية ، لكنَّ القرآن الحمدي ليس بداخل في ذلك القيد .

نعم ، دقَّقت القرآن من كلَّ جهة ، ومن كلَّ نقطة ، فوجدت في كلَّ كلمة منه حكمة عظيمة ، ومن أدعى أنَّ هذا القرآن ترشح من قريحة محمد فقد أغضب العين عن الحقائق ، لأنَّ ذلك الزُّعم يمْجِه العلم والحكمة ، وإنَّى أدعى أنَّ حضرة محمد قد وَرَثَ ممتازة ، وليس في داخل الإمكان إيجاد القدوة مهداً ثانياً .

فيما نَعْمَد إني متأثر جداً من أن لم أكن معاصرًا لك ، إنَّ الكتاب الذي نشرته ليس من قريحتك ، وإنكار الوهية سخف ، كأنَّ الارتكاب على بطلان علم الموضوعات سخف ، إنَّ البشرية رأت قدوة ممتازة مثلك مرَّة واحدة ، ولن ترى مرَّة أخرى ، فبناء على هذا أنا أعظمك بكمال الاحترام ، راكعاً في حضورك المعنوي «^(١) .

(١) إشارات الإعجاز في مطان الإعجاز ، بديع الزَّمان سعيد التورسي ، ص ٣٦٥ ، ط ١٢٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، دار العريضة - بيروت ، تعرِيف : خليل عبد الكريم المارديني .

والإسلام الذي سيلأ المجرى ، إسلام في صفائه الأول ،
وهو :

لطيف في عرضه .
نظيف في فكره .
موضوعي في بحثه .
مثالي في عمله .
واقعي في حياته .
متكملاً في تبيانه ..

☆ ☆ ☆

وأخيراً ..

حضر إلى إسطنبول مع مطلع هذا القرن الشُّيخ محمد بخيت المطبيعي ، مفتى الديار المصرية ومن كبار فقهائها ، وكانت الدولة العثمانية قد أعلنت الدستور في ٢٢ تموز ١٩٠٨ م ، وانتخاب مجلس نواب تكون الوزارة مسؤولة أمامه ، سأله الشُّيخ المطبيعي بديع الزَّمان سعيد النُّورسي : ما رأيك في

الحرّية الموجودة الآن في الدولة العثمانية ؟ وماذا تقول في مدنية
أوربة ؟

فأجابه بديع الزّمان التورسي : إنّ الدولة العثمانية حبلى
حالياً بجنين أوربة وستلد يوماً ما . أمّا أوربة فهي أيضاً حبلى
بجنين الإسلام وستلد يوماً ما^(١) .

ويتساءل المرء : هل سيتحوّل أهل الفسق والفجور
والخور والحرّية الجنسية إلى التزامات الإسلام ؟

ونجيب : إنّ المرض يمكن في حياتهم هذه ، وإحصاءات
نتائج هذه الحياة مذهلة ، فدمّنا بعضها خلال هذا الكتاب ،
والإسلام هو الدّواء ، إنّه طوق النّجاة القادم .

ونذكر بقول السّيناتور الأمريكي (وليم فولبرايت)
صاحب كتاب (حاماًة القوّة) : « لقد وضعنا رجلاً على سطح
القمر ولكن أقدامنا غائصة في الوحل » .

(١) بديع الزّمان التورسي ، تأليف : إحسان قاسم صالح ، ص ٢١ ، ط٢
دار سورلر ، إسطنبول .

نبوءة تقولها : إنَّ الطَّرِيقَ مَعْبُدَةٌ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَبَيْنَ شُعُوبَ
الْعَالَمِ .

إنَّهَا (بِشَارَةً) اعْتَدَتْ عَلَى مَعْطِيَاتِ أُولَئِيَّةِ .
نَسَأَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَحْقُقَ ، لِيَنْعَمَ الْعَالَمُ بِالظُّلْمَانِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ ، إِلَى
جَانِبِ الرَّفَاهِيَّةِ لِلْجَمِيعِ .

عَبْءٌ كَبِيرٌ ، وَمَسْؤُلِيَّةٌ عَظِيمٌ ، وَاقِعَةُ الْيَوْمِ عَلَى عَاتِقِ
الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، وَعَلَى مُفْكِرِيهِمْ وَعُلَمَائِهِمُ الْخَلِصِينَ خَاصَّةً ، فِي
التَّقْدِيمِ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ الْحَائِرَةِ التَّائِهَةِ بِالْحَلُولِ الإِسْلَامِيَّةِ لِمَشَكَلَاتِهَا
الْمُعَاصِرَةِ .

وَلَنْ يَنْتَظِرَ عَاقِلٌ - وَالْحَالُ هَذِهِ - بِزُوْغٍ فِي جَرِيَّةِ الإِسْلَامِ مِنَ
الْغَرْبِ وَهُوَ مُتَقَاعِسٌ مُتَوَاَكِلٌ ، حِينَهَا يَسْتَقِيمُ دِينُهُ ، وَيَسْلِمُ
وَجْهَهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَالآيَاتُ الْكَرِيمَةُ جَلِيلَةٌ وَاضْعَفَةٌ تَحْذِّرُ وَتَتَوَعَّدُ :

﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا يَسْتَشْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَالَكُمْ ﴾ ، [مُحَمَّدٌ : ٤٧/٢٨] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدُ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسُوفَ
يَلْمِعَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يَحِبُّهُمْ وَيَحْبِبُونَهُ أَذْلَلَةٌ عَلَى الْمُسْؤُلِينَ أَعْزَلَةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لِمَنْ ذَلِكَ
فَضُلُّ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ كُلُّ
[الائدة : ٤٥] .
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوَّلًا وَآخِرًا .

☆ ☆ ☆

المحتوى

٥	مقدمة
٢١	الباب الأول : من ذاكرة التاريخ العربي الإسلامي
٦٩	الباب الثاني : نهر يبحث عن مجرى
٧١	الفصل الأول : المجرى الذي جف
٨٣	الفصل الثاني : النهر الذي يبحث عن مجرى
٨٩	الفصل الثالث : ويبقى الإسلام قوياً
٨٩	١- الهجرة
٩٢	٢- أحد
٩٥	٣- الخندق
٩٨	٤- حروب الردة
١٠٠	٥- الفتنة
١٠٤	٦- الحملات الصليبية
١٠٩	٧- هولاكو وسقوط بغداد
١١٧	٨- مصرع غرناطة
١٢١	٩- وادي المخازن
١٢٥	١٠- الاستعمار
١٢٩	خاتمة : القرن الحادى والعشرون قرن الإسلام

الإسلام ببر مبعثه (حراء) ، ومعه (أقرأ) ، ومتنه رحمة للإنسانية ، وقطاره ومساهمه لأكي الأكباد الدين يتعکرون ويعصرون ، وبحراه شعب اختباره الله لم يل الإسلام للناس كافة .

هذا تدفق ، فأسالت قروده وساقيه إلى الصن وآفریقية وأوروبا ، فأيّمت عراس صفتة الخصيّة المتربيع تمار هضبة عالمية ، وحصاراً إسلامية .

هل نصب العين فحّست مياه المجرى ؟

لقد علمنا التاريخ أنَّ العين بغير تدفق ، فالإسلام ببر خالد لن يجف مجرى ، فهل من شائر لسوء المجرى مدنية العرب المادلة التي حفّت فيها ينابيع الروح .

وفي (الإسلام ببر يبحث عن مجرى) : المجرى **البني** حفت ، والبر الذي يبحث عن مجرى ، ويفتش الإسلام قويناً ، والقرن الحادى والعشرون قرن الإسلام .

SBN 1-57547-267-8



9 781575 472676

To: www.al-mostafa.com